

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٦٩ رمضان ١٤٣٦هـ السنة الخامسة والثلاثون

بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي

د. سعاد الناصر

سعاد عبد الله الناصر

* من مواليد (المغرب).
* تحمل درجة دكتوراة الدولة في الآداب.
* تعمل أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب بتطوان ، المغرب.
* رئيسة تحرير جريدة «ملامح ثقافية» التي تصدر في تطوان.
* شاركت في عدد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية.
* صدر لها عدد من الكتب والدواوين الشعرية والمجموعات القصصية، من ذلك:
  - نساء في دائرة العطاء، قصة المرأة في القرآن الكريم.
  - الدعاء سبيل حياة طيبة.
  - قضية المرأة..رؤية تأصيلية.
  - بوح الأنوثة.
  - إيقاعات في قلب الزمن (مجموعة قصصية).
  - ظلال وارفة (مجموعة قصصية).
  - سأسميك سنبلة (ديوان شعر).
  - هل أتاك حديث أندلس (ديوان شعر).



كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة – قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يتوافق إصداره مع شهر رمضان المبارك، شهر القرآن الذي يكاد يكون وعاءً لكل إنجازات الأمة الحضارية وعطائها الإنساني، ويشكل المحطات الكبرى في انطلاقتها، لكن أعظم ما يمثل شهر رمضان بدء نزول القرآن، أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة، ومحور انطلاقها.

يتمحور الكتاب حول إبراز معالم الفن القصصي، حيث إن القصة القرآنية هي إحدى وسائل القرآن وأساليبه في خطاب الإنسان، بكل ما تمتلك القصة من وسائل وأدوات التأثير الفنية والفكرية والبناء المقاصدي.. ولقد اجتهدت الباحثة في إبراز الجوانب الفنية والقيام بمقاربات ومقارنات متميزة، إلا أن هذا الجهد الملفت لا يجوز أن يغيّب عنا الهدف الأساس من القصة وعبرها وهو صناعة إنسان الوحي، القرآن، وأن الخطاب القرآني بكل أجناسه يأخذ بأيدي الناس للتي هي أقوم.

وتأتي أهمية القصص القرآني، الذي شغل مساحات تعبيرية وفنية كبيرة، في أنها تمثل رحلة البشرية وما لحقها من علل، وتاريخ النبوة وكيفية تعاطيها مع الحياة، في كل الظروف والأحوال، وتقدم نماذج للاقتداء في المجالات الحياتية المختلفة، وتمنح دليل العمل.

فقصص الأنبياء، انتهت جميعها لتسجل ضمن السجل القرآني بحيث تشكل رصيد التجربة النبوية التاريخية لأمة الرسالة الخاتمة؛ لتبصر البيّنات، التي أُرسل بها الأنبياء وأنواع الإشكالات والاستجابات، التي واجهتها النبوة.

والأهم في الموضوع التحقق بالعبرة.. وتحقق العبرة في الحقيقة والواقع هو امتلاك الأهلية والخبرة والإمكانية لكيفية العبور الآمن لصناعة المستقبل، الذي يأخذ بالاعتبار ثغرات وإصابات الماضي فيتجنبها.. ويبقى التاريخ هو المختبر الحقيقي لمسالك الأمم، ولاكتشاف السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، ولبصارة الطريق، والاطمئنان إلى سلامة الاختيار.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net
البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي

د. سعاد الناصر

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٦هـ

حزيران (يونيو) – تموز (يوليو) ٢٠١٥م

سعاد الناصر.

بلاغة القص في القرآن الكريم.. وآفاق التلقي.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٥م.

١٤٨ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٦٩)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٥ / ٢٠١٥

الرقم الدولي (ردمك): ١ - ٩ - ١٢٠ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ... ﴾

(يوسف: ٢-٣)

قطر – الدوحة – ص.ب: ٨٩٣ –هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤) فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل وراثتنا الحضارية القرآن (الكتاب)، بكل فضاءاته وآفاقه وأبعاده وعمقه التاريخي ومنهجه في التعامل مع الحياة والأحياء وإجاباته عن التساؤلات الكبرى، التي كانت ولا تزال تؤرق الإنسان، بسبب الحيدة عن قيم الفطرة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر:٣٢)، وجعله مصدقاً لما سبقه من الكتب، ومستصحباً مضامينها وقصص أنبيائها وسيرهم وتجاربهم مع الحياة، ومصوباً للرؤى الدينية والحضارية السابقة، ومهيمناً عليها، رقيباً مبيِّناً مواطن التحريف والتبديل، كاشفاً لرحلة العبث الإنساني بنصوص الكتاب الإلهي، الأمر الذي أدى تاريخياً للانحراف بالتدين والممارسة عن قيم الدين وأصوله في الكتاب، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ (المائدة:٤٨).

وبذلك، يصبح التمسك بالكتاب والتزام قيمه هو أعلى أنواع الإحسان، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٠)، ويصبح الالتزام بالقرآن والدعوة إلى قيمه بالتي هي أحسن وبيان مقاصده يمثل قيمة الجهاد الكبير في أنشطة الإنسان المسلم: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٢).

ولهذا الجهاد الكبير وهذه المجاهدة الدائبة مجالات وأبعاد دعوية وثقافية ولغوية وحضارية وأدبية وفنية وتشريعية وتربوية واجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية.... إلخ.

وحسبنا أن نعلم أن الكتاب (القرآن)، في تاريخ النبوة والثقافة والحضارة الإنسانية، هو معجزة الرسالة الخاتمة، جماع النبوة، وهو محل التحدي والترقي، فاستيعاب المعجزة والاستجابة للتحدي وتلمس جوانب بيانها ومحاولة محاكاتها، على مختلف الأصعدة، كان ولا يزال المحور والمحرك الثقافي ومصدر النشاط الذهني والعقلي والإبداعي للإنسان، سواء في ذلك المؤمن به، الذي يقرأ ويتدبر ويرتقي، أو الجاحد له، الكافر به، مدافعة ومكايدة، حيث الكتاب هو بؤرة الاهتمام ومركز الانطلاق.

ويمكن القول: إن معجزات الأنبياء، التي رافقت الطفولة والتمييز البشري مادية، جاءت ضمن إطار «عالم الأشياء» المشهودة، وإن معجزة الرشد الإنساني الخالدة عقلية، جاءت في إطار «عالم الأفكار» المجردة.

والصلاة والسلام على النبي الأنموذج للإنسان القرآني، المثل الكامل للتأسي والاقتداء، ودليل العمل والتعامل مع مجالات الحياة جميعها، الذي اجتمعت له كمالات الأنبياء، وانتهت إليه رسالاتهم وسيرهم وتجاربهم مع

أقوامهم، لتكون تلك القصص والتجارب، له ولأمته، عبرة تمكنهم من العبور للمستقبل بأمن وسلام، وتبصرهم ببناء الإنسان والحياة بعيداً عن الإصابات، التي لحقت بالأمم السابقة، حيث اختزلت النبوة الخاتمة خصائص وصفات الأنبياء في شخصه، عليه الصلاة والسلام، والرسالات السابقة في رسالته، فجاء رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، لذلك فالمؤمن به مؤمنٌ بكل الأنبياء، الذين ابتعثوا لاستنقاذ الإنسانية: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ (البقرة:٢٨٥).

فالقرآن سجل تاريخي لحضارة النبوة، وقصص النبوة دليل لإعادة بناء حضارتها وتحقيق أمنها وانسجامها، والحيلولة دون الصراع والتسلط والهيمنة والاستكبار.

وبعد:

فهذا «كتاب الأمة» التاسع والستون بعد المائة: «**بلاغة القص في القرآن الكريم .. وآفاق التلقي**»، للدكتورة سعاد الناصر، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في اجتهادها الدائب للعودة بالأمة إلى الكتاب (القرآن)، ومعايرة وتقويم واقعها بقيمه، والبحث عن ذاتها والإجابة عن إشكالياتها الكبرى فيه، وإعادة الكتاب إليها ليكون مصدر حياتها ومناط سلوكها ومحل مرجعيتها والمهيمن الأساس على ثقافتها ودليل عملها وتعاملها،

والخلوص من حالة الهجر والقطيعة، التي حذر منها إمام البيان، عليه الصلاة والسلام، وحكاها القرآن، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ (الفرقان: ٣٠)، وتصويب الالتباس الحاصل لمفهوم الهجر، وتبيّن أبعاده.

لذلك فقد يكون من الأهمية بمكان العمل على دفع التوهم أن معالجة حالة القطيعة والهجر إنما تكون بمزيد من التلاوة والحفظ وكثرة ختم القرآن وزيادة عدد المراكز والخلاوى والكتاتيب ومؤسسات التحفيظ والقراءة فقط، على ما في ذلك من خير وعطاء، على مستوى سكينة النفس واطمئنان القلب وانشراح الصدر وبناء الملكة اللغوية واستقامة اللسان وتخصيب الخيال وتذوق الجمال، لكن ذلك يشكل بعض المقصود، أو بعض المطلوب، الذي يتطلب بُعداً آخر يحقق المطلوب من تعلم القرآن وتعليمه، الذي يمنح الخيرية للأمة: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» (أخرجه البخاري)، حيث لا تتحقق تلك الخيرية - والله أعلم- إلا بالمدارسة «**وَكَانَ يَلْقَاهُ** (أي جبريل) **فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ**» (أخرجه البخاري)، والتدبر، الذي يقود إلى الفقه والفرقان وحسن تدبير الأمور وإبصار الحلول للمشكلات الحياتية: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص:٢٩)، والارتقاء في مدارج الكمال: «**اقْرَأْ وَارْتَقِ**» (أخرجه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

ولعل حديث الرسول ﷺ لابن أم لبيد ﷺ يشكل التشخيص الدقيق والرؤية المبكرة المعصومة لحال الأمة، التي صارت وتصير إليها، لعلها تحذر،

وذلك عند «ذَهَابِ الْعِلْمِ» ولو بقي الحفظ، عندما يذهب التدبر والتعلم والمدارسة وتبقى القراءة والاستظهار والتلاوة، فعَن زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «**وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ؟**» (أخرجه أحمد).

وقد يكون من الأهمية بمكان أن نفتح بعض النوافذ على فهم جيل خير القرون، جيل الاتّباع، وكيفية تعاملهم مع القرآن، ذلك الفهم والتعامل، الذي جعل منهم الرواد وخير القرون، وجعل القرآن مصدر ارتقائهم وعطائهم وفقههم وفرقانهم، الذين كانوا به خير أمة أُخرجت للناس، وتأهلوا به ليكونوا أمة وسطاً تمتلك المنهاج والمعيار للشهادة على الناس، وإبلاغهم الحق، وقيادتهم إلى الخير، فعَن عُثْمَانَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيٍّ، رضي الله عنهم «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُقْرِئُهُمُ الْعَشْرَ فَلا يُجَاوِزُونَهَا إِلَى عَشْرٍ أُخْرَى حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ» فتعلموا العلم والعمل جميعاً (سنن أبي داود).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ لا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إلا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ؛ وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالأَعْمَى، وَلا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن).

وروي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «إِنَّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَسَهُلَ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ الْقُرْآنِ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِ» (القرطبي، الجامع).

والحقيقة، التي لا مرية فيها، أن جيل خير القرون القدوة، جيل المعرفة القرآنية والتربية النبوية، كانوا يعملون بالقرآن ولا يقولون، وأعقبتهم أجيال يعملون بالقرآن ويقولون فيه، ثم أعقبتهم أجيال يقولون في القرآن ولا يعملون بهديه، وهناك بعض لا يقولون ولا يعملون فتعطل العقل والنقل معاً، وبذلك انتقلت إلينا علل الأميين من الأمم السابقة، الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة:٧٨)، أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، قال ابن تيمية، رحمه الله، عن ابن عباس وقتادة، رضي الله عنهم، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يعلمون فقه الكتاب.

ولقد توهم الكثير منا أن إنهاء القطيعة ومعالجة حالة الهجر إنما يكون -كما أسلفنا- بكثرة التلاوة واستظهار القرآن وتحويله إلى لون من الاحتراف وارتياد مجالس العزاء ومدافن الموتى، أو الاقتصار على رقية المرضى، أو جزءاً من برامج افتتاح الاحتفالات الرسمية؛ أما في المؤسسات التعليمية، فمعظم الدراسات القرآنية غالباً ما تدور فيما بحثه الأقدمون حول علوم القرآن، بشكل عام، والجدل حول ما يدخل من الدراسات ضمنها أو ما يخرج عنها، والفرق بين

التفسير والتأويل، والجدل حول علاقة القرآن والسنة، فهل السنَّة مبيِّنة للقرآن وحاكمة عليه، أو أن القرآن هو الحاكم على السنَّة والمهيمن عليها؟

وتلك الدراسات غالباً ما تدور ضمن عقول وإنتاج السابقين، من تحقيقٍ ونشر واختصار وشرح وتعليق، دون محاولة التفكير بتجاوز ذلك إلى أفق أو ملمح جديد، أو النظر من زاوية إضافية، وامتلاك القدرة على تعدية رؤية السابقين إلى مجرد مثل جديد.

لذلك يلف معظم الدراسات الركود والتقليد والتكرار، والتخطيء والتصويب، وبالإمكان القول: إن المحاضرات والكتب، التي كانت مقررة قبل قرون ما تزال هي هي، دون إضافة أو تجديد أو نظر أو اجتهاد، اللهم إلا في الطباعة، رغم تغير الظروف والأحوال والمعطيات الثقافية والمعرفية والمشكلات وأسئلة الحياة، التي تتطلب من الوحي الخالد الإجابة عنها والتي تتمثل بكيف نقرأ القرآن ونتدارسه من خلال الواقع، الذي نعيشه، وكيف نبصر الخلل الواقع في حياتنا ونعالجه من خلال تقويمه بقيم القرآن؟

أما الأنشطة القرآنية، ومعها الكثير من المؤلفات القرآنية، التي تشكل صدى لها، فلا تخرج في معظمها عن ثقافة المناخ السائد والذهنية القائمة في كيفية التعامل مع القرآن.. وقد تكون إشكالية التخلف الكبرى في الإعلان عن عناوين كبيرة، والاقتصار على المضامين البسيطة، التي مضى عليها عهد طويل ولم تحرك ساكناً، ولم تغير حالاً، ولم تقلق القائمين عليها لإعادة النظر في أدائها.

وهذه الحالة من الركود والجمود على الحال، والانكفاء على الذات، والاتكاء على عطاء الماضي فقط، والعيش ضمن دائرة غربة الزمان وما تنتجه من العطالة، وتغييب ملكة النظر والتدبر، الذي يقود إلى التدبير للواقع، والاعتبار والتأمل، الذي يقود إلى العبور للمستقبل الآمن، والحذر من الإصابات، التي لحقت بالأمم السابقة، والاهتداء بهداية القرآن، والاستدلال بدليله لمنعرجات الحياة، والتعاطي معها؛ هذه الحالة، التي عليها القرآن من الهجر والقطيعة اليوم، رغم وجود كتاتيب وخلاوى وكليات وجامعات وأساتذة متخصصون، دفعت بالكثير من خارج الساحة والتخصص الشرعي لوضع رؤى ونظرات واجتهادات ومؤلفات ومجازفات ومحاولات للتعامل مع القرآن، الوحي الإلهي، كنص تراثي خاضعٍ لكل مقاييس النظر والفحص والاختبار والاستنتاج، التي يخضع لها إنتاج البشر، ومحلٍ لإعمال جميع المناهج الاجتماعية والنفسية واللسانية، والخروج بنتائج ومجازفات خطيرة، أما دورنا حيالها فلم يتجاوز، في الأعم الغالب، الموقف الدفاعي، أو التشنيع على الآخرين، وشتيمتهم، دون إيجاد البدائل والمناهج والنتائج الموضوعية المقنعة المستوحاة والمتولدة من الذات، من القرآن.

وكلنا يعتقد أن القرآن كتاب خالد، وأبسط معاني الخلود القدرة على الإنتاج وتقديم الحلول للمشكلات، في كل زمان ومكان، والإجابة عن أسئلة الإنسان في كل زمان، لذلك فالاقتصار على الإجابات السابقة يعني - فيما يعني - محاصرة الخلود، ويبقي الخلود دعوى بلا دليل، وتصبح الخطورة

أشد عندما يُحاصر خلود القرآن من أصحاب التخصصات القرآنية والتي لا تبلغ المدى المطلوب لها.

والحقيقة، التي لا مرية فيها أن النقلة الحضارية أو الوثبة الحضارية ومعالجة حالة التخلف والركود الحضاري تكاد تصبح مستحيلة إذا بقيت مؤسساتنا الثقافية والأكاديمية على ما هي عليه، وبقيت منهاجنا على ما هي عليه، وبقي تعليمنا على ما هو عليه، فكيف يمكن أن يتغير الواقع إذا لم تتغير أدواته ووسائله وأنماط تفكيره؟ فإذا استمر تعاملنا مع القرآن ومعطيات الوحي، بشكل عام، على ما هي عليه فسيبقى حالنا مستمر على ما هو عليه!

إن التحول من إبصار الأهداف والمقاصد إلى التمحور حول الوسائل والأدوات وتقديسها والجمود عليها، رغم تغير الظروف والأحوال والمعارف والإشكاليات، سوف ينتهي بنا إلى المراوحة في المكان الواحد، حتى ولو توهمنا أننا نقطع المسافات، لكننا في الحقيقة نقطع نعالنا!

إنها مرحلة «ذَهَابِ الْعِلْمِ» الذي أخبر عنها الصادق المصدوق مبكراً لابن أم لبيد ﷺ لتأخذ الأمة حذرها فلا تسقط في حقيقة «ذَهَابِ الْعِلْمِ» دون أن تدري، وتستغني بالشكليات والوسائل، التي تعطل عطاءها، دون أن تدرك الخلل فتصلحه، وإنما تستكبر وتستكثر وتكرس العطالة، وتفتح مزيداً من المؤسسات على نفس المنوال دون أن تقوّم وسائلها وأداءها وتكتشف مواطن الخلل وضلال السعي... لذلك فسوف يستمر الوهم بأنها تحسن بذلك صنعاً.

والأشد خطراً في ذلك أن نسمي نقل تلك الوسائل من جيل إلى جيل علماً، والحقيقة أنها تمثل «ذهاباً للعلم»، فأين التغيير؛ ومن أين يأتي؟ وما هي أهدافه؟ وكيف نبدأ به ونتوفر عليه ونستدركه من أهل التخصص، أهل الحل والعقد - ولكل قضية أهل حلها وعقدها- ونتوقف عن السقوط في محذور قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ ﴾ (يونس:٣٩)؟

فإلى متى يستمر الادعاء، والغش الثقافي، والوهم الأكاديمي، والدوران في الحلقات المفرغة، وطحن الماء، والنتائج ما تزال توبخ القائمين على أمرها، الأمر الذي يلخصه قول الرسول ﷺ: «**وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، واستهجان ابن أم لبيد ذلك، ومؤسسات التعليم والقراءة قائمة؟

فنحن ما نزال نقرأ القرآن، ونقرئه لأبنائنا دون أن نسأل عن محصلة القراءة، وكيفية القراءة، وطريقة القراءة، وعطاء القراءة في النفس والمجتمع، ولماذا لم تحقق الارتقاء، الذي يشكل غاية القراءة: «**اقْرَأْ وَارْتَقِ**» في الفكر والفعل؟

أما ما نراه من محاولات بعض الفهوم المعوجة من إسقاط أحكام القرآن على الواقع دون فقه بالقرآن وفهم للواقع، وفقه بالاستطاعة، وتوفر شروط التكليف، فإنما يعني المزيد من الارتكاس وإسقاط آيات القرآن وأحكام الشرع على غير محالها، ودون أن نوفر لها الشروط المطلوبة، حتى لقد تحولت القراءة من حل إلى مشكلة، وأصبح الجهل والأمية أسلم من المعرفة بالأبجدية فقط وذهاب العلم، والتعسف في الفهم، والتطلع إلى العناوين الكبيرة، حتى ولو كانت المضامين متواضعة جداً.

فهل وقعنا في علل الأمم السابقة، الذي حذرنا القرآن من السقوط فيها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ (البقرة:٧٨)، (يقرأونه دون أن يعلموا ما فيه) بمجرد قراءة!؟

ويبقى السؤال الكبير المطروح في كل حين وآن: كيف نقرأ القرآن؟ وهل المكسب فقط أن نتلو ونحفظ فقط دون أن نتحقق برسالة القراءة وعطائها؟ كيف نتعلم القرآن ونعلمه حتى تتحقق لنا الخيرية: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» (أخرجه البخاري)، ونحقق التزكية والحكمة، ونسترد أبعاد البعث النبوي وآفاقه الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢)؟

وكيف نتحقق بالقراءة القاصدة المتدبرة، التي تتوقف معها حياة الضياع ورحلة التيه والضلال، ومتى تكون قراءة القرآن وسماعه سبيل العروج والهداية والرشد واكتمال العقل: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ (الجن:١-٢)؟

كيف نتعامل مع القرآن؟ وهي تكفي الأدوات والوسائل والمناهج الحالية والتيبس على المؤسسات القائمة، وهل تحقق الغرض المقصود، وواقع الحال والفهم، الذي عليه الطلبة والخريجون والدارسون والمدرسون شاهد إدانة لا يدع استزادة لمستزيد؟

وهل تحولت الوسائل إلى أشياء مقدسة غير قابلة للنظر والتطور والاجتهاد حتى ولو توقفت عن العطاء؟ هل أصبحت غايات بحد ذاتها وسبيلاً للارتزاق فقط؟

وهل حدود فهم القرآن الكريم وقفٌ على زمنٍ معين دون سائر الأزمان، وإلى أي مدى يشكل هذا الاعتقاد حجراً على فضل الله وعطائه لكل الناس وكل الأزمان؟

وكيف يتفق ذلك مع اعتقاد خلود القرآن وتجرده عن حدود الزمان والمكان وفهم الإنسان، وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان، والاعتقاد بأن القرآن مائدة مفتوحة وفضاء مفتوح على الزمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأن معارف كل عصر معوانٌ لمزيد من النظر والاكتشاف والتدبر ومحاكاة الإعجاز، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن لكل زمان مشكلاته وأسئلته واستنطاقه لكتاب الله الخالد؟

كيف نجد أنفسنا في القرآن، ونهتدي إلى معالجة مشكلاتنا وإصلاح حالنا، ونجد الإجابة عن أسئلتنا والمخارج لمعاناتنا والمقاصد لوجهاتنا؟ كيف نسترد البوصلة القرآنية لتوجيه حياتنا؟

ومهما تنوعت دراساتنا حول القرآن وتشعبت اهتماماتنا وذهبت تخصصاتنا يبقى محور القرآن الأساس: صناعة الإنسان؛ تربية الإنسان؛ الارتقاء بخصائص الإنسان؛ تنمية الإنسان؛ استنقاذ الإنسان وإلحاق الرحمة به؛ تحقيق خلاص الإنسان؛ وبكلمة مجملة: الهداية للتي هي أقوم.

ولعل البلاغة القرآنية والإعجاز البياني في استخدام كل الوسائل والأساليب الفاعلة والمؤثرة والمتنوعة في بناء الإنسان وصناعته..... فالمثل، والقصة، والتاريخ، والحوار، والجدال، والبرهان، والعرفان، والبيان، بكل أنواعه، والمقاربة، والمقارنة، والاستقراء، والاستنتاج، والاعتبار، والسير في الأرض، والدعوة إلى النظر والتفكر في الكون، واستكناه النواميس العاملة فيه، واستقراء السنن والقوانين الاجتماعية الفاعلة في الاجتماع البشري، وقوانين العمران، وسنن النهوض والسقوط، والترغيب والترهيب، وصنوف القول وأساليب الإعجاز... كلها في نهاية المطاف ما هي إلا أدوات ووسائل لصناعة الإنسان، وتربية الإنسان، وهدايته للتي هي أقوم، وحمايته من المخاطر والانحرافات، وتوجيهه الوجهة السليمة.

فالقرآن خطاب الإنسان، لذلك استخدم كل الوسائل، التي تتناسب مع مكوناته وتطلعاته وأشواقه وفطرته وغريزته، وبكلمة مختصرة: «جِبِلَّته»، وتساهم بتنشئته، أو بإعادة تشكيله.

ولعل جملة الدراسات والاهتمامات المتعددة، التي نشأت حول هذه الوسائل: القصة، والمثل... وتلمس سائر وجوه الإعجاز والسنن ..... إلخ، وأساليب القرآن، إنما تمحورت حول الوسائل والأدوات المتعددة، ولكنها حتى ولو تفردت بالدرس والبحث يبقى ذلك في إطار الوسائل، التي لا بد أن تستصحب في نهاية المطاف البعد الأساس، والهدف الأساس، وتُعاير وتُقَوم بمدى بلوغها وأدائها ذلك، وعدم التوقف عند مكوناتها وبلاغتها وفنيتها.

ولعلنا نقول: إن معظم الدراسات والكتابات، التي تمحورت حول القرآن وعلومه وإعجازه وحفظه ونقله وقراءاته وأساليبه وأغراضه والتي ما نزال نبدي فيها ونعيد، جاءت كلها حول صحة النص وعصمته، وتواتر نقله، ومناهج فهمه وتفسيره، والقليل القليل اتجه نحو كيفية التعامل مع النص القرآني وإعماله في حياتنا؛ حتى دراساتنا حول النص القرآني ما نزال نغترف مما وضعه الأقدمون، ولم نتعد أو نتجاوز ما أنتجوه.

وقد تكون الإشكالية الكبيرة محاصرة النص القرآني، وذلك بالتخويف من التفكير في آياته وعطائها، وإحاطته بأسوار من القدسية، وجعل النظر والفهم، وقفاً أو حكراً على طبقة معينة أو مستوى معيناً، وتلك إحدى العلل الكبرى، التي لحقت بالأمم السابقة وبكتابها (حملة الكتاب المقدس)! وكأن العقل قد توقف، ومعاني القرآن قد نضبت، وكأن عطاءه جاء مناسباً لفترة زمنية مضت وانتهت، وخلوده وقدرته على الإنتاج دعوى بلا دليل!

ويبقى السؤال الأهم: لماذا هذه الدراسات؟ وما هي الأهداف والمقاصد المرجوة منها، في مختلف الآفاق؟ وهل توصلت إلى ملامح وآفاق جديدة، وقدمت النظر من زوايا جديدة إلى النص من خلال واقع الحياة واختلالاتها، أم اكتفت بالتعريف للوسيلة، والوصف لها، وما قاله الأقدمون بشأنها، دون تقديم أية إضافات؟ والأخطر في الموضوع تسمية ذلك علماً دون أن يحدث ثمراته، التي وجد من أجلها!

فالأمر في معظمه دوران في عقول السابقين، وفي هذه الحال ستبقى المشكلات إما معلقة وإما مؤهلة لاستدعاء (الآخر)، بثقافته وحلوله؛ لملء الفراغ.. ولعل الإلقاء بالتبعة والمسؤولية على (الآخر) لإعفاء (الذات)، في المجال العلمي والثقافي، أمر محزن وبائس؛ فكيف السبيل إلى معرفة حدودنا ومسؤولياتنا عن أمتنا وكتابها الخالد؟

فأين نحن من القرآن؟ وأين القرآن منا؟

فالقرآن عندنا انتهى، في واقع الحال وفي الغالب الأعم، إلى صفحات الذاكرة، التي تجتهد في تكراره ومراجعته خشية نسيانه أو ضياع بعض آياته، أو التلاوة ومعاودة التلاوة، التي قد لا تتجاوز اللسان والحنجرة.

اليوم، بات يستغرقنا الجدل حول عظمة القرآن، وإعجاز القرآن، والاقتصار على رفع الشعارات عن أهمية تحكيم القرآن في حياتنا، وأن القرآن دستورنا، عن تنزيل القرآن على واقعنا والالتزام بتكاليفه، ضمن استطاعاتنا، والتحول من الجدل حول الموضوع إلى العمل بالموضوع.

إن المعرفة بالمنهج وسائر الوسائل والأدوات ما لم توصل إلى الإنتاج المأمول وتعالج المشكلات، التي تعاني منها الأمة تفتقد قيمتها؛ وإن المؤسسات المعنية ما لم تحقق النقلة النوعية والتغيير نحو الأفضل وتمنح مفاتيح لحسن التعامل مع القرآن وقيم الوحي يصبح الكثير منها هياكل وأشياء لا معنى لها.

لذلك نعتقد أنه لا بد من تقويم هذه الوسائل، والحكم على جودتها وصلاحيتها بمدى ما تحقق من إنتاج، ذلك أن التغير المتسارع في حركة الحياة،

الذي يستدعي التغيير المتسارع أيضاً في مشكلاتها، يتطلب المراجعة وإعادة النظر المستمرة بالوسائل والأدوات، التي نستخدمها، حتى ولو أثبتت جدواها في الماضي، فهذا لا يعني قدرتها أو خلودها؛ لأنها في الأصل مواضعات بشرية جاءت ثمرة لرؤية وبيئة وظروف أتى عليها التغيير، فصلاحيتها لمرحلة لا تعني صلاحيتها لكل المراحل، فالإصرار عليها رغم عدم إنتاجها هو إساءة لها على كل حال، والنيل من قيمتها التاريخية.

فالقرآن خالد ومجرد عن حدود الزمان والمكان -كما أسلفنا- لذلك فغياب الإنتاج، وغياب إيجاد الأوعية القرآنية لحركة الأمة والحلول القرآنية لمشكلاتها والإجابة الصحيحة لأسئلتها، لا يقتصر سوؤه على إحداث الفراغ، الذي استدعى ويستدعي (الآخر) بحلوله ويقصي القرآن عن حياة الناس، وإنما يعتبر شاهد إدانة لكل الأدوات والوسائل والمناهج، التي ما تزال معتمدة، حتى ولو عجز معتمدوها عن تعدية الرؤية إلى أفق معاصر آخر.

ولعل الميزة الأهم للقرآن، على أهمية مزاياه كلها، أن بعض وجوه إعجازه تنزيل آياته على حياة الناس تحققه من خلال عزمات البشر، وأن هذا الإعجاز سما وارتقى ببيانهم وعقولهم وثقافتهم وعمرانهم وأخلاقهم وعلاقاتهم، وشكّل لهم القوة والفاعلية الدافعة للارتقاء والنهوض، والمانعة من الذوبان والسقوط.

فكم من الدراسات المتنوعة، التي نشأت حول القرآن في مختلف صنوف المعرفة وفنونها، محاكاةً للإعجاز، ومحاولة لإدراك أبعاده، فكانت بمثابة جداول لغوية وبلاغية وتشريعية وبرهانية وفنية وثقافية، مصبها النهائي جميعاً هدف القرآن في صناعة إنسان الوحي، وتقديمه أنموذجاً بشرياً قرآنياً معطاءً.

وبعد:

فهذا الكتاب، الذي يتوافق إصداره مع شهر رمضان المبارك، الذي وصفه الله تعالى بأنه وعاء القرآن ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ... ﴾ (البقرة:١٨٥)، ذلك أن هذا الشهر الكريم، الذي نزل فيه القرآن، في تاريخ الأمة وحياتها، يكاد يكون وعاءً لكل إنجازاتها الحضارية وعطائها الإنساني، ويشكل المحطات الكبرى في انطلاقتها، لكن أعظم ما يمثل شهر رمضان للمسلم ويمتاز به هو بدء نزول القرآن، أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة في مراحل حياتها كلها.

صحيح أن هذا الكتاب تمحور حول إبراز معالم وتميز الفن القصصي في القرآن، حيث إن القصة القرآنية هي إحدى وسائل القرآن وأساليبه في خطاب الإنسان، بكل ما تمتلك القصة من وسائل وأدوات التأثير الفنية، والاستغراق في تتبع الأبعاد الفنية، والقيام بالمقارنات والمقاربات، التي اجتهدت الباحثة في إبرازها، إلا أن هذا الجهد الملفت لا يجوز أن ينسينا أو يغيِّب عنا الهدف الأساس من القصة وعبرها وهو صناعة إنسان الوحي (العرفان)، وإنسان العقل (البرهان)، وإنسان البلاغة (البيان)، وأن القرآن يأخذ بأيدي الناس للتي هي أقوم، ويُلحق الرحمة بهم.

وتأتي أهمية القصص القرآني، الذي شغل مساحات تعبيرية وفنية كبيرة ومؤثرة في القرآن، في أنها تمثل رحلة البشرية وما لحقها من علل، وتاريخ النبوة وكيفية تعاطيها مع الحياة، في كل الظروف والأحوال، وتقدم نماذج للاقتداء في المجالات الحياتية المختلفة، وتمنح دليل العمل لكيفية التعاطي مع الصراع الأزلي

بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحرية والاستبداد والاستعباد، والألوهية والتأله، والتوحيد والشرك، والله والطاغوت، والإيمان والكفر، والمستضعفين والكبراء، وتكشف عن طباع النفوس وخصائص الشعوب.

فالقصص موطن عبرة، ودليل عمل، في الوقت نفسه، انتهت جميعها لتسجل ضمن السجل القرآني بحيث تشكل رصيد التجربة النبوية التاريخية لأمة الرسالة الخاتمة؛ لتبصر البيّنات، التي أُرسل بها الأنبياء وأنواع الإشكالات والاستجابات، التي واجهتها النبوة.

والأهم من ذلك كله التحقق بالعبرة، والإفادة من التجربة، وبذلك نضيف أعماراً إلى عمرنا، وعقولاً إلى عقلنا، وتجارب إلى حياتنا، ونختزل رحلة الضياع والضلال المحتملة لكل أمة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، وتثبيت الفؤاد إنما يكون بالاعتبار بالتجارب والإفادة من خلاصة التجربة، والصبر على التحدي، والقناعة بأن المعول عليه هو العواقب البعيدة وليست النتائج القريبة وجولات الغلبة السريعة.

والعبرة في الحقيقة والواقع هي امتلاك الأهلية والخبرة والإمكانية لكيفية العبور الآمن لصناعة المستقبل، الذي يأخذ بالاعتبار ثغرات وإصابات الماضي فيتجنبها، فالعاقل الذي يعتبر بغيره، والأحمق الذي يكون عبرة لغيره، ويبقى التاريخ هو المختبر الحقيقي لمسالك الأمم، ولاكتشاف السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، ولبصارة الطريق، والاطمئنان إلى سلامة الاختيار.

ولله عاقبة الأمور.

مدخل:

نزل القرآن الكريم بلغة عربية، تجمع بين اعتبارها وسيلة إبلاغية، وبين كونها وسيلة معرفية جمالية نزلت بلسان عربي مبين. والإبانة هنا تؤكد إعجاز القرآن الكريم من خلال علاقة اللغة ببعديها الإبلاغي والجمالي. وقد سعى القرآن الكريم في تقديم جزء كبير من خطابه من خلال مادة قصصية، سادت في جل السور، بشكل تجعل المتأمل يكتشف أن خطاب القص فيه، ليس مجرد إخبار عن أحداث ماضية من أجل العظة والاعتبار، وإنما أيضاً هو تأسيس لسياق جمالي وثقافي، يرسخ حقيقة التوحيد، وينسج خصوصيات جمالية ومعرفية، مغايرة لسياق الشرك وآفاته، ولمرجعية الشعر وسطوته.

من هنا كان الاقتراب من استجلاء بعض ملامح جمالية القص في القرآن الكريم، يعد مطلباً ملحاً، يسعف في محاولة ملامسة ما تحمله بعض سماتها من العطاءات الربانية، المخاطِبة لمقامات المتلقي في مختلف ما تبسطه المادة القصصية وتنوعها، المبثوثة على طول القرآن الكريم، واستنباط دلالاتها وفهمها، والارتقاء في معارجها،

من أجل تحقيق الفهم والتدبر، وإنزال مقاصدها وجمالياتها على واقعنا المعيش، للمساهمة في إعادة تشكيل عقل ووجدان الإنسان، وتطبيق العمل بمقتضاها.

وأروم في هذا الاقتراب، بإذن الله، الاستناد إلى التفاعل المستمر مع القرآن الكريم، ومحاولة خوض غمار مسالكه وحدائقه، والإنصات إلى نبض معانيه ورهيف جمالياته بعُدة البلاغة، وقدح زناد الأسئلة الفنية والمعرفية، واستصحاب مصادر التفسير، من قرآن وسنة نبوية وبعض التفاسير المعتبرة. وقبل هذا وذاك، استحضار التأمل والتذوق السليم، كي لا يضيع الهدف الأسمى من أي قراءة أو فهم، ألا وهو تعبيد الحياة لله رب العالمين.

تجلية المفاهيم

- مفهوم البلاغة:

تعبر لفظة البلاغة في المعاجم العربية على وصول الشيء أو إيصاله إلى غايته ونهايته، تقول: بلغ الشيء يبلُغ بُلُوغاً وبَلاَغاً: إذا وصل وانتهى إلى غايته، وتقول: أبلغت الشيء إبلاغاً وبلاغاً، وبلغته تبليغاً، إذا أوصلته إلى مراده ونهايته، والبلاغة هي الفصاحة[1]. أما عند اللغويين القدامى فهي: مطابقة الكلام لمقتضى حال من يُخاطَب به، مع فصاحة مفرداته وجمله، وإصابته مواقع الاقتناع من العقل، والتأثير من القلب[2]، أي هي سبيل الإقناع والإمتاع أيضاً. ومن هذا حدد علي الجارم ومصطفى أمين، مفهوم البلاغة بأنها: «تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن، الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطَبون»[3].

وعلى هذا الأساس، فالبلاغة تجد مكانها في مختلف الحقول المعرفية، الأمر الذي يعني أن لها علاقة وطيدة بالنص الأدبي في شتى مظاهره الفنية والتعبيرية، وأنها وسيلة وذريعة في اكتناه أسرار البيان وتذوق جمالياته[4]، كما أنها مدخل

---

(١) انظر: جمال الدين ابن منظور، لسان العرب (دار الفكر، ١٩٩٠م) ٦/٤٢١-٤٢٢.
(٢) انظر: الجاحظ، البيان التبيين، مكتبة الهلال، ص٦.
(٣) البلاغة الواضحة، ص١٠.
(٤) محمد إقبال عروي، آليات منهجية في استثمار الدرس البلاغي، ضمن كتاب بلاغة النص القرآني (منشورات مركز الدرايات القرآنية، ٢٠١٤م) ص٧٥.

لعلوم الآلة في تحليل النص، ومعرفة المقاصد والأغراض، وكيف أبان المتكلم عنها، وكيف يهتدي الدارس البلاغي إلى سرها[1]؛ والعمدة في إدراك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني[2].

- مفهوم القص القرآني:

يعبر معنى القص لغة عن تتبع الأثر وتقصيه، يقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان، إذا اقتصّ أثره، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً[3]. وقد ذهب المفسرون إلى هذا الأصل اللغوي، يقول الفخر الرازي: «القصص اتباع الخبر بعضاً بعضاً، وأصله في اللغة: المتابعة.. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، أي اتبعي أثره.. وإنما سميت الحكاية قصة: لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً»[4]، ويقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران:٦٢): «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة»[5].

أما في العصر الحاضر فإن لمصطلح القصة «ثلاثة مفاهيم تداولها منظرو القصص هي:

---

(١) محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص٦٦.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٤١٨.

(٣) انظر لسان العرب، المجلد السابع، ص٧٤/٧٥.

(٤) التفسير الكبير، ٢/١٨١.

(٥) التفسير الكبير، ٢/٢٠٣.

- أنها ملفوظ قصصي بمعنى الخطاب القصصي، يكون شفوياً أو مكتوباً، وينقل حدثاً أو سلسلة من الأحداث.

- أنها تكون بمعنى الحكاية، التي تتمثل في المضمون القصصي، الذي قوامه الأحداث، واقعية كانت أو متخيلة.

- أنها فعل للقص في حد ذاته أو ما يسمى أيضاً سرداً. ولئن اختلفت مفاهيم القصة في هذه التعريفات فإنها، في نهاية الأمر، ملتئمة في مفهوم أوسع ينتظمها. فهي تقال أو تكتب لتخبر عن الأحداث الجارية في الحكاية. وهي حامل للمضمون القصصي. وهي أيضاً مجال تظهر فيه علامات تحيل على فعل القص أو السرد، الذي ينجزها»(١).

أما علم السرد(٢) فحين يتناول مفهوم القصّ فإنه يشير إلى ثلاثة معانٍ لهذا القص تتمثل في: الأول: المضمون السردي (الحكاية)، الذي يتمثل في الأحداث المضمّنة فيها؛ والثاني: فعل القص نفسه (طريقة السرد)، وما يتبعه من إنشاء علاقات بين أطراف عملية السرد (السارد، السرد، المسرود له)؛

---

(١) معجم السرديات، مجموعة من الباحثين، إشراف: محمد القاضي (الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ٢٠١٠م) ص٣٣٢.

(٢) علم السرد: قام على دراسة مختلف أجناس السرد كالحكاية العجيبة والأسطورة والمقامة والرواية والقصة القصيرة وغيرها، وأول من نظر له الشكلانيون الروس خاصة «بروب» في كتابه «مورفولوجيا الحكاية الخرافية»، وتبعهم في ذلك عدد من الغربيين أمثال «جنيت، وتودوروف، وبارت، وكريماس»، وقد استفاد الدارسون العرب من تنظيراتهم كسعيد يقطين في كتابه «تحليل الخطاب الروائي»، وحكمت الخطيب في كتابه «تقنيات السرد الروائي»، وصلاح فضل في كتابه «أساليب السرد في الرواية العربية» وغيرهم.

والثالث: الملفوظ السردي، أي الهيئة التي يظهر عليها فعل القص مكتوباً أو شفهياً[1].

والسؤال الذي يواجه الباحث في مجال القصة القرآنية، هل يخضع القص القرآني لهذه المعاني؟؟

يجب أن ندرك بداية أن القص القرآني لا يخضع بالضرورة لشروط القص الإنساني؛ لأن مبدعه هو الله عز وجل، الذي أبدعه لأغراض دينية وجمالية ومعرفية، يدعونا إلى اكتشافها من خلال التبصر والتدبر، لكننا نستأنس بهذه المفاهيم، لتحديد فهمنا لها، بعد أن نتتبع مظان ورود مادتها في القرآن الكريم.

إن لفظ القص ومشتقاته في القرآن الكريم يقترب من معنى المتابعة، إلا أننا يمكن أن نشير إلى كون من يتتبع الخبر في القصة القرآنية هو الله عز وجل، الذي هو مطلع عليه بصورة شاملة، فهو كلي العلم والمعرفة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ (الأعراف:٧).

وقد وردت مادة (ق ص ص) في عدد من سور القرآن الكريم، منها واحدة سميت القصص، أولها من حيث ترتيب المصحف كلمة (القصص) في الآية (٦٢) من سورة آل عمران، وردت تعقيباً على قصة عيسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. والقصص الحق هنا ينفي الألوهية عن غير الله[2].

---

(١) انظر: إبراهيم عبد المنعم، بلاغة السرد القصصي، ص٦.

(٢) محمد أحمد حمدون، القصة القرآنية، قراءة تأملية، مجلة المنهل، عدد٤٩١، المجلد ٥٣، ١٩٩١م، ص٢٦٧.

ثم ورد الفعلان (قصصنا، ونقص) في الآية (١٦٤) من سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وذلك في معرض تأكيد وحدة الرسالة السماوية.

ثم وردت في كل من سور الأنعام والأعراف وهود وغافر. وتشترك هذه الألفاظ في معنى إيراد أخبار الأمم السابقة، وترتبط ببيان الحقيقة الإلهية وبعث الرسل برسالة ذات غاية وهدف واحد، وتثبيت فؤاد النبي ﷺ، كما «تشير إلى حقيقتين، أولاهما: كون القصص بعلم، أي صادراً عن معرفة يقينية وليس مجرد تخيل، وثانيتهما: الإشارة إلى هدف القص وهو التدبر والتقوى والصلاح»[1]، والثبات على الحق.

ويعتمد القرآن الكريم عدداً من المرادفات، التي تشترك مع المعنى القصصي ودعومته للشروع في فعل القص/السرد وإيراد الخبر على مستوى الفعل والمصدر، إلا أنها تكتسب دلالات أخرى حسب السياق، الذي ترد فيه. من هذه المرادفات:

- الحديث: ويعني الخبر لغة، ويحضر في النص القرآني بدلالات مختلفة، لكن ما يهمنا في هذا الصدد هو حضوره للتعبير عن الشروع في فعل القص/السرد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (طه:٩).

---

(١) المرجع السابق.

- النبأ: ويعني الخبر والإعلام لغة، ويحضر مقترناً بفعل القص للتعبير عن الإخبار بالقصص، في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (طه:٩٩)، و﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ (الكهف:١٣).

- التلاوة: وتعني القراءة لغة، لكنها حضرت مرادفة للقص في مثل قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ (القصص:٣)، أي نقص عليك.

وهذه المرادفات الدلالية في أساسها اللغوي دوال مختلفة تحيل إلى مدلول واحد هو الخبر، الذي يشكل جوهر ونواة القصة في القرآن الكريم.

وتعتبر القصة في القرآن الكريم إحدى أهم وسائل التبليغ القرآنية المتعددة في الشكل، والمتحدة في الهدف[١]، ولذلك فهي ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطرق عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، بل هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية[٢]، وخطاباً توجيهياً يؤثر في النفس الإنسانية، بسبب ما يتضمنه من متعة السرد وجمال الإيقاع وعمق المعاني مما تميل إليه النفس وتألفه[٣].

---

(١) سعاد الناصر، نساء في دائرة العطاء، قصة المرأة في القرآن الكريم (الكويت: منشورات إدارة الثقافة الإسلامية، ٢٠١١م) ص٧/٨.

(٢) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن (بيروت: دار الشروق، ١٩٨٣م) ص١٤٣.

(٣) نساء في دائرة العطاء، مرجع سابق، ص٧.

من هنا يمكن أن نفرق بين مستويين من مستويات القص في القرآن الكريم:

- مستوى الأخبار السردية المنتجة لفعل القص، كما في الآيات (١٣-٢٠) من سورة البقرة.

- ومستوى القصة باعتبارها متناً حكائياً، ينتظم وفق نسق المبنى الحكائي الخاص، كما في قصة بداية الخلق في سورة البقرة. والمستويان معاً يجمعهما مصطلح القصة القرآنية، بوصفها بنية مكتملة، تحمل في طياتها معناها الخاص، الأمر الذي يحتاج إلى تقص علمي دقيق لتوصيفها. ولا شك أن البلاغة ستكون عدة مسعفة لاستنطاق مكنوناتها وجمالياتها.

- مصطلح التلقي:

التلقي في اللغة: هو الاستقبال عموماً[1]، كما في قول الله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٣)، أي تستقبلهم، وفي هذا المعنى أيضاً جاء قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (ق:١٧)، أي يستقبل الملكان ما يصدر عن الإنسان من أقوال فيسجلاها. وقد أشارت الآية الكريمة إلى دلالة التلقي بصيغته الفعلية في حركيتها الزمنية (الحاضر المستمر) وفي صيغته الاشتقاقية: ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ في ثبوتها ودوامها

(١) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة: لقي، لسان العرب، المجلد ١٥، ص٢٥٦.

لتُمنح صفة مكانية ثنائية للتلقي؛ من خلال كل سلوك وحركة إنسانية عبر اليمين والشمال.

وقد ورد لفظ التلقي في القرآن الكريم للدلالة على التعليم والتلقين والتوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٢٥)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ (النور:١٥)؛ أي يأخذ بعض عن بعض، و﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ (البقرة:٣٧) معناها أنه أخذها عنه، ومنه لَقِنها وتلقَّنها[1].

وأما تلقي القرآن: فهو استقبال القلب للوحي، إما على سبيل النبوءة، كما هو الشأن بالنسبة للرسول ﷺ، على نحو ما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل:٦)، إذ ألقى الله عليه القرآن بهذا المعنى، كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥)، قال، رحمه الله: «إشارة إلى ما حُمِّلَ من النبوة والوحي»[2].

وإما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ[3]. وهو عام في كل مؤمن تلقى القرآن روحاً من الله عز وجل بقلبه وعقله وجوارحه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ

(١) لسان العرب، المجلد ١٥، ص٢٥٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة: (لقي).

(٣) فريد الأنصاري، مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية، ص٥٧.

مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

وبهذا المعنى يكون التلقي من صميم المفهوم الرسالي للدعوة؛ لأنه بدون تلقي الوحي وضوابط هذا التلقي وشروطه لا يمكن تحقيق الرسالية وتطبيقها وتصديرها أيضاً، «فالقارئ له ليس عنصراً مستهلكاً، بل عنصر متفكر فيه، فكان لزاماً أن يتحقّق الفهم والإفهام للذات السامعة القارئة حسب مستوى الإدراك والوعي»[1].

وتلقي القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ؛ إنما يكون بتعامل العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غضاً طرياً، فيتدبره آية آية، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حياً في عصره وزمانه، ومن هنا وصف الله تعالى العبد، الذي «يتلقى القرآن» بهذا المعنى؛ بأنه يُلْقِي له السمع بشهود القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)[2].

وأن يتلقى الإنسان القرآن، معناه أن يصغي إلى الله يخاطبه، فيبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبه روحاً، وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التَّخَلُّق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله ﷺ، من حديث

---

(١) انظر: باسل خلف حمود الزبيدي، مفهوم التلقي والقراءة والتدبر في ضوء نقد نظريات التلقي، ص١٣.

(٢) انظر: مجالس القرآن، مرجع سابق، ص٥٧.

أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، لما سئلت عن خُلُقِه ﷺ؛ فقالت: **«كان خُلُقُه القرآنَ»**[1].

ومعناه أيضاً أن تتنزل الآيات على موطن الحاجة من قلب الإنسان ووجدانه، كما يتنزل الدواء على موطن الداء، فآدم، عليه السلام، لما أكل هو وزوجه من الشجرة المحرمة؛ ظهرت عليهما أمارة الغواية؛ بسقوط لباس الجنة عن جسديهما، فظل آدم، عليه السلام، كئيباً حزيناً، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه:١٢١).

ولم يزل كذلك حتى (تلقَّى) كلمات التوبة من ربه فتاب عليه؛ فكانت له بذلك شفاءً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧). فهو عليه السلام كان في حاجة شديدة إلى شيء يفعله أو يقوله؛ ليتوب إلى الله، لكنه لا يدري كيف؟ فأنزل الله عليه - برحمته تعالى- كلمات التوبة؛ ليتوب بها هو وزوجه إلى الله تعالى. وهي -كما يقول المفسرون- قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣)، فبمجرد ما أن تنزلت الآيات على موطن الحاجة من قلبه؛ حتى نطقت بها الجوارح والأشواق؛ وكان آدم، عليه السلام، بهذا أول التوابين، وذلك أخذه كلمات التوبة على سبيل (التلقي)[2].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) مجالس القرآن، مرجع سابق، ص٥٨.

فكان ذلك التلقي أول مدارج العروج إلى مقام «كلمات الله»، واتضح من خلال استعماله القرآني أنه وسيلة عملية للتفاعل الوجداني والعقلي مع القرآن، لخط سطور منظومة معرفية وسلوكية وجمالية تتحقق من خلالها أسس الرقي الإنساني، كما كان الشأن في عهد النبوة، وكما هو مطلوب في كل الأزمان، حين يعمل المتلقي على تلقي القرآن بوعي وإعمال للبصيرة والتفكر، بوصفه نظاماً ومنهج حياة، يقوم على عقيدة التوحيد، التي تسمه بالتميز والتفرد.

وقد اهتم التراث العربي بجمالية التلقي، فجاءت مبثوثة في ثنايا اهتمامه بقضايا النص، خاصة تلقي القرآن الكريم والشعر، عقب حقب زمنية مختلفة، فترددت عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وغيرهم بألفاظ مرادفة كالسامع والمستمع والمخاطب والجمهور والمقام.

- أغراض القصة القرآنية:

إن أغراض القصة القرآنية كثيرة، لكنها تتفرع إلى فروع ثلاثة تتكامل فيما بينها:

فرع ديني، باعتبار القصة وسيلة من أهم الوسائل التي استثمرها القرآن الكريم في نشر الدعوة والقيم الإنسانية، وإقامة الحجة على المعاندين والمشركين، وتثبيت المؤمنين على الحق وتهذيبهم وتصحيح العقيدة والأخلاق في أنفسهم، الأمر الذي يعني أن ما ورد في القرآن الكريم من أخبار تاريخية لا تدعو إلى البحث والتعليل والتفسير التاريخي بقدر ما تدعو إلى أخذ العبر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف:١١١).

وفرع معرفي؛ لأن أسلوب السرد والقص مبثوث في كل مكان من القرآن الكريم بشكل يجعل المتلقي على اتصال معرفي وثقافي بما تحمله القصة من رؤى ومواقف ومفاهيم حول مجموعة من المنظومات المتجلية في الكون والحياة والإنسان، لذا يحث تعالى رسولَه ﷺ على تقديم وبيان هذا الزاد المعرفي للناس لعلهم يؤمنون عن علم ومعرفة؛ لأن المعرفة في المفهوم الإسلامي ليست مطلوبة في ذاتها، وإنما في ما يمكن أن تخلقه من وعي يساهم في إثراء الحياة الإنسانية بالعقل والإيمان، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦).

وفرع جمالي، ذلك أن القصة القرآنية تعتمد أسلوباً فنياً وجمالياً مؤثراً، يفي بكل آليات وشروط التعبير الفني وعناصر السرد الحكائي المتميز، ويجعل من التصوير أساساً له، للتأثير على وجدان المتلقي بلغة الجمال[(١)]، وعرض مختلف المواقف والأحداث عرضاً جمالياً، وإن كان هذا العرض يخضع لمكون الانتقاء خدمة للغرض الديني.

وهذا التكامل في الأغراض والمقاصد يجعل القصة في القرآن الكريم إحدى أهم وسائل التبليغ القرآنية المتعددة في الشكل، والمتحدة في الهدف، تنقل إلى الإنسان تجارب إنسانية مختلفة ومتعددة، وقعت في أزمنة وأمكنة معينة، لكن طريقة تقديمها وأسلوب عرضها المعجز في القرآن الكريم، يجعلها تنساب في حاضر المتلقي وعقله ووجدانه، كي يأخذ منها العبرة، ويعيد بها تجديد واقعه وحياته[(٢)].

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص١٤٤.

(٢) انظر: نساء في دائرة العطاء، مرجع سابق، ص٧.

الفصل الأول
المادة القصصية ومقاصد تلقيها

المبحث الأول
المادة القصصية في القرآن الكريم

وردت المادة القصصية في القرآن الكريم مبثوثة على طول مساحته، في أغلب سوره، الأمر الذي يجعل المتلقي يتفاعل بشكل مستمر، بما تتضمنه من رؤى ومضامين حول مجموعة من التجليات الموجودة في الكون والوجود والحياة والإنسان والغيب والشهادة، وذلك بتقديمها لجوانب مختلفة ومتنوعة من حياة الأنبياء والأمم السابقة، وتفعيل تجربتها الإنسانية عبر ثنائية الكفر والإيمان. وقد توزعت هذه المادة بهيئة هندسية متفردة، وإيقاع منسجم مع سياق ومكونات السور، التي وردت فيها.

فالمادة القصصية تعلن عن حضورها وديمومتها، من خلال بناء تصور فكري ومعرفي وجمالي، يسعى لاستكمال حلقات الاستنباط المتجدد للأحكام الفقهية والتشريعية والقيم الإنسانية، فضلاً عن تلبيتها لاحتياجات نفسية وتربوية وجمالية عميقة.

والمتلقي للقرآن الكريم، ليندهش من وفرة هذه المادة، بحيث ما يكاد يستهل سورة البقرة، إلا ويجد نفسه أمام صورة قصصية أو حوار قصصي أو غيرهما، لتتوالى بعد ذلك المادة القصصية بشكل يفوق توقعاته.

ويمكن أن نفرق بين نوعين من القصص في القرآن الكريم:

النوع الأول: وهو المتكامل، الذي له بداية ونهاية، فلكل نبي مذكور في القرآن قصة، ولكل أمة سلفت رواية، ولكل حادثة ذات مغزى في حياة رسول الله ﷺ ومن معه حكاية، كقصة إبراهيم وعيسى وهود وثمود وموسى ويوسف، وفتية الكهف وغيرهم.

النوع الثاني: وهو المفتوح، الذي لا تتوفر فيها شروط القصة المتكاملة من بداية ونهاية وشخصيات معروفة، وإنما تسرد مجموعة من المواقف واللمحات الإنسانية، أو إشارات موجزة لقصص بعض الشخصيات.

وإذا استعرنا المفاهيم الحديثة في مقاربة أشكال هذه المادة القصصية المتنوعة، والمختلفة، نجدها تتمثل في:

- القصة الطويلة: أو الرواية، فبالرغم من أنها جنس أدبي يستعصي على التحديد، إلا أن لها مكونات أساسية تميزها عن الأجناس الأدبية الأخرى، منها: أنها شكل أدبي سرديّ يحكيه سارد، وبهذا تختلف عن المسرحية، التي تُحكى قصتها من خلال أقوال وأفعال شخصياتها، وهي أطول من القصة القصيرة وتُغطي فترة زمنية ممتدة، وتضم عددًا من الشخصيات، وتفصل في السرد بدلاً من التكثيف. ونجد قريباً من هذا المفهوم قصة يوسف، وقصة موسى في سورة القصص.

– القصة القصيرة: ويتم التركيز فيها على حدث أو موقف معين يكون هو بؤرة الحكي، وتمتاز بالتكثيف والقصر، مثالها قصة يونس مع قومه في سورة الصافات.

– القصة الحوارية: وهي القصة، التي يغلب عليها أسلوب الحوار، كقصة الخلق في سورة البقرة.

– الإشارة القصصية: ونجدها تأتي بشكل ضمني في سياق معين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ (الأنبياء:٧٤)، وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (آل عمران:١٣).

– الشذرة القصصية: وهي ما يعرف بالقصة القصيرة جداً، من حيث التكثيف والقصر وغير ذلك، ومثالها قصة نصرة رسول الله في هجرته في سورة التوبة، والمرأة التي نقضت غزلها في سورة النحل وغيرها.

وهذه المادة القصصية «لا تقوم فقط إلى جانب دورها البياني، بدور الربط والمقارنة بين مواقف متعددة، بل تبدو وكأنها النسيج الفني المحكم لقصة واحدة تصل إلى غايتها حين يتخلى الإنسان، كل إنسان في كل زمان ومكان، عن عناده وإصراره ويؤمن»[1]. وهي تتميز بسمات وخصائص

(١) محمد أحمد حمدون، القصة القرآنية، قراءة تأملية، المنهل، عدد٤٩١، سنة ١٩٩١م، ص٢٧٧.

جمالية عديدة، يفضي بعضها إلى بعض في ترابط محكم، منها الكثرة والتكرار والتذييل.

١ – الكثرة:

إن استقصاء المادة القصصية في القرآن الكريم لا تكاد تجد لها حصراً، فابتداء من سورة البقرة إلى آخر السور القصار، يجد المتلقي نفسه إزاء مشاهد وصور وأحداث يعرضها الله تعالى عرضاً سردياً مبهراً، ففي سورة البقرة مثلاً تطالعنا «صور قصصية تقوم على حوار بين الحق وبين الذين كفروا، وفي هذه الصور تصوير لما ختم الله به على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا يستجيبون لحق ولا يكفون عن باطل»[١]، ولأحوالهم مع الكفر والاستكبار. وهي آيات[٢] تستعرض حلقة من حلقات لا متناهية، مكونة من الدعوة إلى الله والرفض والاستكبار أو الإذعان والإيمان والعاقبة والمصير، وتشكل البنية النواة، التي تكررت دلالاتها في كل القصص القرآني، باستثناء قصة الخلق، التي تمثل مقدمة وسبباً لوجود هذه النواة.

و«ما نكاد نخرج من هذه الصورة القصصية حتى ندخل في أول قصة بتفريعيها المتكررين في القرآن الكريم وهي قصة آدم، خلقه وهبوطه إلى الأرض وتمرد إبليس (٢٩-٣٩)، ومنها إلى قصة أخرى ذات تفريعات وتكرار، وهي قصة موسى مع فرعون ومع قومه (٤٠-١٢٣). ونلاحظ في هذه القصة

(١) انظر المرجع السابق، ص٢٦٩.

(٢) البقرة، الآيات، ٨-٢٠.

التداخل مع قصة فرعية هي قصة البقرة الصفراء التي تمثل لجاجة بني إسرائيل (٦٧-٧٣) وهي لا تختلف عن اللجاجة التي عهدناها في الذين اشتروا الضلالة بالهدى في مطلع السورة»[1].

وفي سورة آل عمران نجد قصة امرأة عمران، التي نذرت ما في بطنها لله عز وجل، وجانباً من حياة مريم واصطفائها ومعجزة خلق عيسى، إلى جانب سرد التجاء زكريا للدعاء ودوره في التبشير بيحيى، وختم الله تعالى هذه القصة بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٦٢).

وفي سورة المائدة قصة موسى، عليه السلام، وقومه حين أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة (٢٠/٢٦)، تعقبها قصة ابني آدم، عليه السلام (٢٧/٣٢)، وفي آخر السورة نجد قصة عيسى، عليه السلام، والمائدة.. وفي سورة الأنعام نجد قصة إبراهيم، عليه السلام، مع أبيه آزر وقومه (٧٤/٨٣).. وفي سورة الأعراف نجد تكراراً لقصة آدم، عليه السلام، وتمرد إبليس (١١/٢٧)، تعقبها قصص هود وصالح ولوط وشعيب مع قومه عاد (٦٥/٩٣)، ثم قصة موسى مع السحرة ومع قومه بعد أن عبر بهم البحر (١٠٣/١٧١).. وفي سورة الأنفال نجد ملامح سردية من جهاد رسول الله ﷺ وأولى معاركه مع المشركين (٧/٢٠)، وتمتد هذه الملامح إلى سورة التوبة (٢٥/٢٧)، التي فيها عرض لقصة مسجد الضرار (١٠٧/١١٠).

(١) القصة القرآنية، قراءة تأملية، المرجع السابق.

وهكذا في كل السور القرآنية نجد عرضاً قصصياً يسرد جانباً من جوانب قصة الإيمان والكفر في الحياة البشرية، وهي كلها تؤكد استمرارية قصة الإنسان على الأرض: حياده عن الحق ودعوته للرجوع إليه، أو الشر والخير في الإنسان مجتمعين[1]، بالإضافة إلى ما تحمله من رؤى ومفاهيم ربانية حول مجموعة من القضايا والإشكالات المتعلقة بالكون والحياة والوجود والإنسان والغيب والشهادة والقيم.

٢- التكرار:

إن متلقي القرآن الكريم يجد أن التكرار ظاهرة ملفتة للنظر في القصص القرآني، وداعية إلى الكثير من التساؤلات حولها، لكن المتأمل يدرك أن القصة لا تتكرر بألفاظها ودلالاتها، وإنما يقع ذكر جانب أو أكثر من القصة في موضع لمناسبة، وذكر جانب آخر أو أكثر في غيره لمناسبة أخرى، استكمالاً للصورة العامة، التي يقررها القرآن في قصصه؛ لأن ذلك يخدم غرضين من أغراض القصة القرآنية، غرضاً فنياً يتمثل في تجدد أسلوبها، إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها، إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها، لفظاً ومعنى؛ وغرضاً نفسياً يتجلى بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها[2].

---

(١) انظر: القصة القرآنية، المرجع السابق، ففيه عرض تفصيلي للمادة القصصية في القرآن الكريم من البقرة إلى آخر السور.

(٢) انظر: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص ١١٥.

وقد أسالت هذه الظاهرة مداد كثير من العلماء والباحثين، قديماً وحديثاً، فهذا السيوطي، مثلاً، يقول: «والتكرير أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة ومن فوائده التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبه سبحانه على السبب، الذي لأجله كرر الأقاصيص من الإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾»[1].

ويشير مصطفى صادق الرافعي إلى أن «التكرار، الذي يجيء في بعض آيات القرآن، يختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون من هذا الباب»[2].

فالقصة إذن، تتكرر في القرآن الكريم بدلالات جديدة وسرد مغاير، متوافق مع سياق السورة، التي وردت فيها، والمعنى المستفاد يختلف باختلاف السياق، لذا جاءت القصة الواحدة موزعة في عدد من السور، حسب السياق والمناسبة، باستثناء قصة يوسف، عليه السلام.

فقصة خلق آدم وتمرد إبليس مثلاً تكررت في القرآن الكريم، لكن في سياقات مختلفة، وبأداء متنوع، وفي مواضيع عديدة، لكن يظل الهدف الأسمى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، ١/٦٢.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٥٥.

منها هو تحقيق العبودية لله وهداية البشرية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

ففي سورة البقرة يعلن الله عز وجل عن بداية خلق الإنسان، وأنه سيجعله خليفة في الأرض، منذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٣٨-٣٩)، وكان التركيز فيها على مواقف الذنب والتوبة، وعلى استمرارية الحياة في الأرض.

لكن في سورة الإسراء، بسط الله تعالى جانباً آخر من قصة الخلق، ابتدأه من لحظة امتناع إبليس السجود لآدم، عليه السلام: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١)، حيث جلّى سبحانه، حقد الشيطان على الإنسان؛ لتكريمه عليه، ووعيده بإغوائه لبني آدم وإبعادهم عن الصراط المستقيم: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢).

فهنا تقرير وتأكيد على استطاعة إبليس على جر الإنسان من حنكه جر الدواب، لكن الله عز وجل يثبت أنه لا سلطان للشيطان على عباده

المؤمنين، مهما وسعه الجهد. يقول ابن كثير: «إن في هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على عظم خطر الشيطان على الإنسان، وأنه لا يترك طريقاً ولا باباً في إضلال بني آدم إلا سلكه ودخله، فإنه يأتي من جميع الجهات إلا من فوق الإنسان، فإنه لا يستطيع أن يحول بينه وبين رحمة الله».

وهذا التهديد أيضاً يشير إليه الله تعالى في عرضه لجوانب أخرى من قصة بداية الخلق: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩)، وقال أيضاً: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧).

وتعد قصة موسى، عليه السلام، من أكثر القصص تكراراً، حيث ذكره الله تعالى في مائة وعشرين موضعاً[1]، موزعاً بين إشارات طويلة أو قصيرة، أو في مجال قصصي مشترك. ووقع تكرارها لتشابهها مع قصة رسول الله ﷺ، ولاحتوائها على قيم التأسي والصبر والثبات، يقول سيد قطب في هذا المجال:

«كانت قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل قصة حافلة بالعظات والعبر، التي لا يستغني عنها الرسول، في اقتحام العقبات والتعود على الصبر والتأسي بمن سبقه من الرسل، والصمود أمام القوى الغاشمة، ليجعل من

---

(١) انظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق يوسف مرعشلي (بيروت: دار المعرفة) ٣/٣٧.

الإسلام طلائع النور في أمة طال عليها الليل كما طال الأمد على بني إسرائيل فقسمت قلوبهم، وكان يهود المدينة أشد على الدعوة الإسلامية في المكر والغدر واللجاجة من مشركي مكة، فهم الذين حرضوا المشركين على الرسول ﷺ وتآمروا معهم واحتضنوا المنافقين في المدينة، وهم الذين تولوا حرب الإشعاعات والدس في صفوف المسلمين وتشكيكهم في عقيدتهم، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها؟ وما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم الطويل ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٧٥)[١].

وهكذا الأمر مع ما تكرر من القصص القرآني، حيث يقع في موقع تحدي الأمم السابقة لأنبيائهم وعدم استجابتهم للحق، والجزاء الذي يتلقونه، وسرد المراحل، التي مروا بها، في سياقات لها صلة بالتوحيد، الذي يسعى إلى ترسيخه وتحقيق عبادة الله، الأمر الذي يسعف في فهم التكرار، وطبيعة الانتقاء، الذي يقوم به الله عز وجل المنسجم مع المناسبة، التي ترد فيها، خاصة انتقاء الحدث والموقف والقيمة، وعرضها بأسلوب جمالي متنوع ومعجز، بحيث يشعر المتلقي أنه بصدد الجديد والمختلف.

---

(١) في ظلال القرآن، ١٢٥/٦.

٣- التذييل:

التذييل لغةً مصدر ذيَّل، وهي جعْلُ الشيء ذيلاً للآخر وتعقيباً عليه[١].

أما في الاصطلاح فقد عرفه الزركشي بقوله: «أن يُؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول؛ تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويَكْمُل عند من فهمه»[٢].

ويعتبره بعض العلماء والباحثين من مظاهر انسجام النص القرآني وتماسك بنائه وإحكام بنياته، و«سمة بارزة من سمات الأسلوب القرآني، ووجهاً فائقاً من أوجه بلاغته؛ وذلك لأنها تجمع بين وظائف معنوية، لكونها تزيد معاني الآيات بياناً وإيضاحاً، ووظائف جمالية، لكونها تمهد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وفواصلها»[٣].

ونماذج التذييل كثيرة ومتنوعة، ومتكررة أيضاً، تأتي مناسبة لسياقات القصة ومعناها العام، وتأكيداً على التخلق والاعتبار بصفات الله، والدعوة إلى الاختيار بين ثنائية الخير والشر أو الكفر والإيمان أو غيرها من القيم والمعاني الدينية.

ففي مطلع سورة الشعراء ترد مثلاً قصة اللحظة الحاضرة والرسول ﷺ باخع نفسه على آثار قومه حتى يكونوا مؤمنين، ولكنهم لا يزالون مختلفين، مكذبين، ويأتي التعقيب عليها بالآيتين الثامنة والتاسعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، ثم ترد مجموعة

---

(١) لسان العرب، المجلد ١١، ص٢٦٠.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/٦٨.
(٣) التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبوزيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ١٩، ١٩٩٢م، ص٩١.

من قصص الأنبياء والأمم السابقة كموسى ونوح وثمود ولوط وأصحاب الأيكة، ليتكرر التذييل نفسه في ختام كل قصة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، لتأكيد النتيجة الحتمية للصراع بين الحق والباطل، والتذكير بأن العزة لله، وأن الرحمة منه وحده سبحانه.

ومن أقوى التذييلات القرآنية، التذييل الذي ختم الله تعالى به قصة الجنتين في سورة الكهف، مؤكداً أن النصر لا يكون إلا من الله عز وجل: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٣-٤٤)، فبعد سرد القصة، التي برزت فيها الذات الإلهية، وأشارت إلى عظمة الله في خلقه، وبطر النعمة والكفر بالخالق عز وجل، وثبات المؤمن على إيمانه مهما كانت الظروف، والتغيير الذي يحدث جراء ذلك، يأتي التذييل للتأكيد على عظمة الذات الإلهية وقوتها، ورجوع الولاية إليها. الأمر الذي يؤكد ما هذه السمة الجمالية في القصة القرآنية من أثر في روعة التصوير وجمال البيان، واختزال المعنى وتأكيده. ولعل المتتبع لها يكتشف أقسامها المتعدد وألوانها المتباينة.

٤- الانتقاء:

وهو من أبرز خصائص القصة القرآنية، التي تبرز من خلال بعض الظواهر البلاغية كالتكرار والحذف والإضمار. فقد تكررت كثير من القصص في القرآن الكريم، لكن طريقة عرض أجزائها يتميز بالانتقاء من الأحداث والألفاظ بما يناسب السياق، الذي ترد فيه القصة.

مــن ذلك، مثــلاً، قصــة آدم، عليــه الســلام، فحياته حافلة بالكثير من الأحــداث، ابتداءً من خــلقــه، كما أنــها حافلة بالكثير من المواقف، التي تحدد تفاعــله مــع الــكون المحيــط به، سواء في الجنة أو في الأرض، وقصته تتكرر في القرآن في عدد من السور، لكن في كل قصة ينتقى من الأحداث ما يلائم السياق، الذي وردت فيه، ففي سورة البقرة مثلاً وردت قصة آدم في سياق الحديث عن وحدة الخلق، لذا كان انتقاء الأحداث ملائماً لإظهار هذه الوحدة مع تكريم الله لآدم بتعليمه، أما في سورة الأعراف مثلاً فقد وردت قصة آدم في سياق الحديث عن عصيان إبليس وعرض أسلوب غوايته لبني آدم.

من ذلك أيضــاً ما نجــده في قصة سليمان، عليه السلام، فقد وردت في أربع ســور، وفي كل ســورة ينتقي الله تعالى جانباً منها، يتم التركيز عليه، مــن ذلك التركيز على موته، في قولــه تعــالى في ســورة سبــأ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (١٤).

كــذلك يتضـــح الانتقــاء جلياً في قصة موسى، عليه السلام، حيث ذكرت القصة في عدة ســور مع التركيز على أحداث دون أخرى، فمثلاً تعرض القرآن لأول موقف من قصة موسى، عليه السلام، وهو إلقاؤه في اليم في عدة سور، لكن انتقاؤه للحدث يكون من أجل الكشف عن الموقف

الأساس منه، فمثلاً في سورة القصص يكون الكشف عن شعور الأم عند تلقي أمر إلقاء ولدها في اليم في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٧)، وفي سورة أخرى يكون الغرض من أمر إلقاء موسى في اليم، مناسباً لسياق العثور عليه من طرف من سيكون عدواً له، يقول تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ (طه:٣٩).

فعرض بعض الأجزاء من القصة في سورة دون أخرى لتتناسب مع سياق الآيات يوضح ظاهرة الانتقاء، التي تتميز بها القصة القرآنية. وهذا يعني أن المهم في عرض القصص ليس التأريخ لحياة الشخصيات بتفاصيلها وأحداثها المختلفة، إنما المهم هو انتقاء ما يفيد الموقف ويناسب السياق، كما يفيد أن الأحداث ليست موزعة توزيعاً عشوائياً، وإنما هي موزعة بدقة وروعة وإعجاز.

وتتجلى خاصية الانتقاء كذلك في بلاغة حذف التفاصيل، التي يستشفها المتلقي من السياق في بعض المواقف للدلالة على المعنى بأبلغ عبارة وأكثرها تأثيراً، كما نجد مثلاً في آيتي (طه:٦٩-٧٠): ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، فقد حذف من بين

الآيتين تفاصيل كثيرة، أي: فألقى موسى عصاه بيمينه فتلقفت حبال السحرة، فانبهر السحرة ولم يجدوا بداً من التسليم بصدق موسى، عليه السلام، فسجدوا.

وكما يختار القرآن الكريم من الأحداث ما يلائم السياق والموقف، الذي يريد إبلاغه للمتلقي، فإنه يمتاز أيضاً بانتقاء الكلمات المناسبة للمعنى، أي يتميز بالدقة في اختيار الكلمات، التي تحمل دلالات عميقة، وتعبر عن أحداث كثيرة بأقل عدد من الكلمات، كما في كلمة (تذودان) مثلاً الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص:٢٣).

فهذه الكلمة بينت أن الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، حتى لا يدعي أحدهم أنها له، وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران – لضعفهما – حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأن أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها، وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة، والدوافع النفسية، التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة، كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة هي ﴿تَذُودَانِ﴾.

ولاشك أن هذه الكلمة تكشف عن نفسية هؤلاء القوم، الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم، دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء، وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدهما، ولذلك لفت هذا المشهد انتباه موسى، عليه السلام، وأثار تعجبه، ولما عرف القصة سقى لهما، وهذا يدل على حسن خلقه.

ونجد أيضاً في قوله تعالى في قصة موسى، عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فلفظة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ تخفي سرداً كثيفاً وتقنية بلاغية تعبر عن الانتقاء، وهي تقنية الإضمار، حيث تلخص خوف موسى وقلقه، وحركاته، وهو في التفات مستمر، يميناً وشمالاً، ويمشي بخُطىً يشوبها كثير من الحذر.

ومما يثبت أن القرآن الكريم يميل إلى اختيار وانتقاء الألفاظ القليلة ذات المعاني والدلالات الكثيرة، أننا نجد قصة قصيرة بليغة مركزة على قوم عاد في الآيات (١٨-٢٠) من سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، فهذه الآيات القصيرة تحدثنا عن تكذيب قوم عاد، والعذاب الذي حل بهم نتيجة لتكذيبهم والذي لم يبق على أحد، جزاءً وفاقاً، الأمر الذي يؤكد أن خاصية الانتقاء تكشف عن أسرار كثيرة في القصص القرآني.

٥- هيمنة السارد على الشخصيات والأحداث:

إن السارد في القصة القرآنية هو الله سبحانه وتعالى، وهو حاضر في نسيج القصص، سواء بوصفه محركاً للأحداث، أم بوصفه فاعلاً فيها. وإذا كان المؤلف لا يظهر بصفته الاعتبارية في ثنايا قصصه، وإلا عد ذلك عيباً، وكان يختفي خلف أقنعة الرواة، سواء من الخلف أو بالمعية أو من الخارج، فإنه في القصة القرآنية حاضر بعلم كلي، فهو سبحانه وتعالى يعرف ما لا تعرفه الشخصيات، وإن كان في بعض الحالات يطلعها على بعض المعرفة عن طريق الوحي قبل وقوع الأحداث، مما يكسبها قوة المواجهة، ويجعلها مطمئنة عند حصول الأزمات.

كما أن السارد يتحكم في صيرورة الأحداث، ويصيرها بإراداته كما يشاء، وتتسلسل معظم الأحداث بطريقة منطقية، إذ يهيئ لها الأسباب الطبيعية، ولكن في بعض الحالات تتأزم الأحداث فتتدخل القدرة الإلهية لتفك أزمتها وتحل عقدتها، كما هو الشأن، مثلاً، في قصة إبراهيم، عليه السلام، عندما قذفه النمروذ في النار فنزل أمر الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩).

وقد يأتي السرد برؤية محايدة، حيث يتم تنظيم الحكي من موقع خارجي، و«تُترك شخصيات السرد تتحدث بأصواتها دون تدخل، مما يعطي انطباعاً

للمتلقي بصدق ما يتلقى، حين يجد نفسه مشاركاً في الحكي بوصفه مشاهداً حاضراً ومستمعاً لما يجرى من حوار. تتجلى هذه الرؤية في وظيفة الدعوة، من قصص الأنبياء، وما يصاحبها من جدل التكذيب، حيث الحاجة إلى معرفة التفاصيل المتلبسة بالدعوة، كعلاقة الرسول بقومه، ومنهجه في دعوتهم، وهدفه منها.

وكل هذا يجري أمام عينَي المتلقي من خلال الرؤية المحايدة، فيرى بموضوعية، وعليه من ثم أن يحكم بعقله على ما رأى، وأن يجنب كل حكم للهوى، أو للعادة»[1].

ورغم الحياد في بعض القصص، فإن هيمنة السارد الكلية، تتخلل السرد؛ لأن القرآن الكريم هو كتاب دعوة، تتجلى فيه الفاعلية الدالة على عظمة الخالق وقدرته في تحريك الأحداث والشخصيات والمصائر.

---

(١) محمد مشرف يوسف خضر، خصائص السرد القصصي في القرآن، مجلة حراء، عدد٦.

المبحث الثاني

مقاصد التلقي

١- التزكية والتدبر:

من أهم مقاصد تلقي القصص القرآني التزكية والتدبر. ويشتركان كلاهما في تربية النفس على الطاعات، وتنزيل الأحكام والقيم على الواقع المعيش.

أ- التزكية:

أصل التزكية في اللغة من زكا يزكو، وتجمع بين أربعة معان:

- معنى النماء والزيادة، يقال زكا الزرع أي نما وزاد.

- ومعنى التطهر، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣) أي تنمو وتتطهر بها، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ (عبس:٣)، أي يتطهر من الشرك والذنوب.. والزكاة زكاة المال، وهو تطهيره، والفعل منه زكى يزكي تزكية إذا أدى عن ماله زكاته، و«الزكاة ما أخرجته من مالك لتطهيره به، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ قالوا: تطهرهم بها»[1].

---

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الرابع عشر، ص٣٥٨.

- ومعنى الصلاح، يقال رجل زكي أي صالح، ومنه قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف:٨١)، أي عملاً صالحاً، قال الفراء: زكاة أي صلاحاً، قال أبو زيد النحوي في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ أي يصلح[1].

وقد جمعت الزكاة هذه المدلولات الثلاثة؛ «وقيل لما يخرج من المال للمسلمين من حقوقهم زكاة؛ لأنه تطهير للمال وتثمير له، و إصلاح، ونماء».

- ومعنى المدح، يقال زكاه الله وزكى نفسه تزكية إذا مدحها وأثنى عليها، يقول تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (النجم:٣٢)، أي لا تمدحوها.

وقد اعتبر عدد من العلماء والباحثين أن التزكية ضرب من ضروب التربية، يستهدف تنمية الغرائز والملكات والقدرات الصالحة في المتلقين لها، وتنقيتهم وتطهيرهم من خبائث الاعتقادات والأخلاق والعادات والأعمال والأقوال، حتى تكون الأمة قوية نافذة في أمورها، متحررة من جميع الانحرافات، التي تزيغ بها عن الطريق[2].

وإذا تقصينا ورود لفظها في القرآن الكريم، نجد أنها مقصد مهم من مقاصد الوحي، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا

---

(١) لسان العرب، السابق.

(٢) انظر: محمد سليمان الأشقر، أفعال الرسول ودلالاتها على الأحكام الشرعية، ١/٢٨-٢٩.

وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨-١٢٩)، فقد اقترن دعاء إبراهيم، عليه السلام، لربه سبحانه، بأن يجعل من ذريته ﴿أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ﴾ وأن يبعث في هذه الأمة ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ لتحقيق الهدف من تلقي الوحي، وهو تبليغهم رسالة الله وتعليمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، أي يرتقي بهم نحو درجات النماء والتطهر والصلاح ومستويات التكريم الإلهي.

وقد استجاب سبحانه لنبيه إبراهيم ، عليه السلام، فقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤). وقال في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة:٢).

وإذا كانت الآيات السابقة تقدم معالم لكيفية تلقي الأمة للوحي وهي: تلاوة القرآن وتحقيق فاعلية القراءة، والانفتاح على ما فيه من علم وهدى وحكمة، وتزكية النفس بالبناء والتطهر والتربية المستمرة، فإن هناك آيات قدمت مادة قصصية، تركز على تحقيق تزكية الفرد، بتربيته وبناء شخصيته، وترقية وجدانه، من ذلك قوله تعالى في سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾، يعاتب الله عز وجل في هذه الآيات نبيه الكريم لما عبس في وجه رجل مؤمن يريد أن يستزيد منه ويتعلم.

وقد افتتح تعالى سرده «بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام» وفي ذلك «تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم»[1]، وأنه يشير إلى إمكانية تحقيق تزكية الفرد بدخوله إلى دائرة الإيمان، فقد يكون تزكي الرجل مرجواً، إذا أقبل عليه رسول الله ﷺ بالإرشاد، وزاد الإيمان رسوخاً في نفسه، وفعل خيرات كثيرة مما يرشده إليها، ويزيد تزكيه، فالمراد بـ (يتزكى): تزكية زائدة على تزكية الإيمان بالتحلي بفضائل شرائعه ومكارم أخلاقه مما يفيضه هديه عليه[2]، لتعود التزكية على النفس ذاتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ (فاطر:١٨).

كما أن قصة ثمود، جاءت في سياق أطول قسم في القرآن الكريم يتعلق بتزكية النفس، وذلك في سورة الشمس، يهدد فيها الله عز وجل المشركين، الذين كذبوا رسول الله ﷺ طغياناً، كما كذبت ثمود رسولها طغياناً وكفراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ (الشمس:١-١٥)،

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٣/٣١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، السابق، ص١٠٦.

كما يذكّر بفلاح من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وبخيبة من اختار الفجور بعد أن أُلهم التمييز بين الأمرين، بالإدراك والإرشاد الإلهي[1].

ونلاحظ قبل تقديم القصة قسمه تعالى بعديد من مخلوقاته، من الأشياء والأحداث والظواهر، حيث أقسم بنفسه على شيء عظيم، وجاء جواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. أي لا يفلح إلا من تحقق بالتزكية، وهي البعد عما يُغضب الله من الذنوب والآثام، والارتقاء بالنفس في مدارج العبادات والطاعات والأعمال الصالحة. وفي المقابل يخسر من حال بينه وبين نفسه من فعل الصالحات، وحرمها من الخيرات الربانية.

والقصة القرآنية بمجملها تركز على التزكية والسمو بالأخلاق وتقويم السلوك وإصلاح النفوس، من خلال تعليم فضائل الأخلاق، والقدوة الحسنة، كقصة يوسف، عليه السلام، في صبره وعفته وتسامحه، وقصة أيوب، عليه السلام، في صبره، وغير ذلك. والنهي عن الفواحش والأخلاق الذميمة، كتصوير شناعة ما كان عليه قوم لوط، عليه السلام، وما كان عليه أهل مدين، وغيرهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١/٣٧٣.

ب- التدبر:

إن تزكية النفس لن تتحقق إلا إذا اقترنت بالتدبر، وحرر الإنسان قلبه من الأمراض، التي تصيبه. وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم حين يذكر أن القلب، الذي هو موطن القدرات العقلية يعي ويغفل، ويطمئن وينكر، ويؤمن ويكفر. والتدبر مأخوذ من دبر وهو آخر الشيء. ودبّر وتدبّره: نظر في عاقبته، وعرف الأمر تدبراً أي بآخره، وفلان ما يدري قِبال الأمر من دباره، أي أوله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبر لهُدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره. والتدبر: أن يتدبر الرجل أمره ويدبره أي ينظر في عواقبه[1]. وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه في العواقب[2].

وقد ورد فعل التدبر في القرآن الكريم بمعنى التأمل في معاني القرآن وآياته، والتفكر والتبصر بما فيه لمعرفة التأويلات الصحيحة والدلالات المستنبطة[3]، وجاء في كل الآيات بصيغة المضارع، «فلا يمكن تصور فعل التدبر إلا في سياق الفعل المتواصل»[4].

---

(١) لسان العرب، مادة دبر، المجلد ٤، ص ٢٧٣.

(٢) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ص٤٣.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد ٥، ص٣٠٠؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد ٥، ص١٣٧.

(٤) محمد إقبال عروي، التدبر في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني، دعوة الحق، عدد ٣٤٣، مايو ١٩٩٩م، ص٦٨.

ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء:٨٢)، و﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤) جاء مسنداً إلى الجمع المذكر السالم، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:٦٨)، و﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩)، جاء مجزوماً بأداة الجزم.

واستناداً إلى معناه في القرآن الكريم نجد أنه لا يقتصر على التأمل والتفكر، مع أنهما سلوكان مطلوبان بداية، وإنما «يتعين ممارسة التدبر عبر الالتفات إلى مآله وعاقبته، إذ لا يتعلق الأمر مع القرآن بمجرد التفكر والتأمل، بل إنهما يعتبران وسيلة إلى غاية كبرى، وهي التذكر والعظة والاعتبار والاستجابة لنداء الله»[1].

وقد جعل الله تعالى القرآن ميسراً، بحيث لا يحتاج إلى وسائط بينه وبين متلقيه من حيث التفاعل الوجداني والعقلي. فعلى الرغم من أن استنباط الأحكام النظرية والعملية، واستخلاص المفاهيم والتصورات، والمبادئ والقيم يحتاج إلى علماء لهم شروط معينة في الفهم والتأويل، إلا أن كل إنسان يمكن أن يضع القرآن الكريم موضع تدبر وتفكر وتأمل.

فالتدبر هو ذلك الفهم والتعايش مع كل الأفكار والصور والأحكام والقيم الموجودة فيه، وهو الوسيلة الفعالة، التي تمكن من استخلاص الجهاز المفاهيمي والقيمي، الذي يصوغ مقومات الذات، ويثبت الهوية، ويرتقي بالشخصية، ويقيم الحضارة.

---

(١) التدبر في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني، المرجع السابق.

ولما كانت القصص القرآني جزءاً من القرآن الكريم، فإنها في تقديمها للنماذج البشرية من الأمم السابقة، ورسمها لأحوالهم ومواقفهم، تهدف أيضاً إلى تدبرها، من أجل أن «يتجنب المسلمون الوقوع في شرك الأسباب، التي تسوق إلى أخطاء تلك الأمم. وإذا أخذنا قصة موسى مع فرعون مثلاً فإننا نجدها، كما يقول الشيخ رضا، ذكرت في القرآن ١٢٠ مرة، ولم يكن ذكرها للتسلية، وإنما ذكرت حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة، وحتى تعرف الشعوب أيضاً أن عبادة غير الله جريمة، وأن الرضى بالذل ستكون عقباه الهوان في الدنيا وفي الآخرة»[1].

ومن أبرز ما يمكن أن يتدبره المتلقي من القصص القرآني مثلاً تقويم الخلق والسلوك، الفردي والجماعي، ففي قصة الجنتين نجد نوعين من أنواع السلوك البشري:

الأول هو الظالم لنفسه بالكبر والطغيان، الذي يقارن بين ما يملكه هو وما يملك غيره، فيجد أن ما عنده عظيم ويحتقر ما عند غيره، لينعكس ذلك في فعله وقوله، يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف:٣٢-٣٦).

---

(١) التدبر في القرآن الكريم، المرجع السابق.

وقد استخدم الله عز وجل، أسلوب المزاوجة بين الوصف والسرد والحوار، الأمر الذي يثير المتلقي، ويستحوذ على اهتمامه.

وفي المقابل، نجد شخصية أخرى قائمة على التضاد مع الشخصية الأولى، محورها الإيمان والاستسلام لله عز وجل، وجاءت الآيات مؤيدة ذلك من خلال الاستفهام الاستنكاري: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (الكهف:٣٧-٤٤).

وفلسفة الإيمان لدى الشخصية الثانية متكئة على الثقة بالله وعدم الشرك به، وعلى رؤية إيمانية ينقلها للكافر، فلو تحول منهجه الدنيوي إلى منهج عقدي سليم، لا يرى في الدنيا مكسباً، وإنما معبراً، فإن معيار النظر إلى متاع الدنيا يختلف.

ومن أبرز الأمثلة، التي تبرز مقصد التدبر والتزكية، أنموذج طلب العلم في قصة موسى، عليه السلام، والرجل الصالح، فموسى، عليه السلام، في سورة الكهف، يخرج في رحلة من أجل طلب العلم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ

لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ (٦٠)، وبعد سلسلة من الأحداث يلتقي موسى، عليه السلام، مع العبد الصالح: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ (٦٥)، ويطلب أن يرافقه ليتعلم منه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (٦٦)، لكن العبد الصالح يشترط عليه شروطاً: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ (٦٧-٧٠).

وهنا يمكن أن نتدبر مجموعة من الأشياء، منها الصبر على التعلم، مع تعليقه بالمشيئة، والامتثال والطاعة للمعلم، وعدم التعجل في السؤال حتى ينتهي المعلم. وتمضي القصة في تسلسل محكم تروي الأحداث، التي وقعت في تلك الرحلة، تعلم المتلقي الحرص على العلم في كل مراحل الحياة، فمهما وصل الإنسان إلى درجات العلم والمعرفة، عليه أن يستزيد منهما.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة من القصص القرآني، التي نستشف منها مقصد التزكية والتدبر، ولعل تشخيص عناصر الطبيعة وظواهرها، ومخاطبتها كأنها كائنات تحس وتعقل، تحقق هذا المقصد، خاصة حين يلمس تلك الصلة الروحية بين الإنسان والمخلوقات الطبيعية، التي تعد من عجائب الله تعالى، سواء كانت في الأرض أم في السماء، لأن مثل هذه الصور والصلات من شأنها أن تعمّق وعي الإنسان بهذا الكون، وتقوده إلى التدبر والتأمل.

٢- مقصد الصدق والحق:

إن الحقيقة، التي لا ريب فيها أن القصة في القرآن الكريم بنيت بناء محكماً على الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول وباطله ونسج الخيال، وأسست على الحق والصدق والواقع، ولم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦٢). وهي تصور الحقائق بصدق وواقعية ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء:١٠٥)، لذا نجد أن من أهم المقاصد، التي يتلقاها متدبر القصص القرآني مقصد الحق والصدق، وهما معاً يفضيان إلى دلالات مشتركة.

أ- الصدق:

ترددت لفظة الصدق في القرآن الكريم صفة لحديث الله عز وجل ولحديث رسوله ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢)، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٢).

ومن أبرز صفات الأنبياء الصدق، لذا وصفهم الله عز وجل بصيغة المبالغة (الصدِّيق) في مثل قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم:٤١). ولعظم شأن الصدق؛ فقد أمر الله -تعالى- خاتم النبيين وأفضل المرسلين أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء:٨٠).

وعن منزلة الصدق قال ابن القيم: «وَهِيَ مَنْزِلَةُ الْقَوْمِ الأَعْظَمِ، الَّذِي مِنْهُ تَنْشَأُ جَمِيعُ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ، وَالطَّرِيقُ الأَقْوَمُ، الَّذِي مَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنَ الْمُنْقَطِعِينَ الْهَالِكِينَ . وَبِهِ تَمَيَّزَ أَهْلُ النِّفَاقِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَسُكَّانُ الْجِنَانِ مِنْ أَهْلِ النِّيرَانِ. وَهُـوَ سَيْفُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، الَّذِي مَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ قَطَعَهُ، وَلا وَاجَهَ بَاطِلاً إِلاَّ أَرْدَاهُ وَصَرَعَهُ، مَنْ صَالَ بِهِ لَمْ تُرَدَّ صَوْلَتُهُ، وَمَنْ نَطَقَ بِهِ عَلَتْ عَلَى الْخُصُومِ كَلِمَتُهُ. فَهُوَ رُوحُ الأَعْمَالِ، وَمَحَكُّ الأَحْوَالِ، وَالْحَامِلُ عَلَى اقْتِحَامِ الأَهْوَالِ، وَالْبَابُ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ الْوَاصِلُونَ إِلَى حَضْرَةِ ذِي الْجَلالِ، وَهُوَ أَسَاسُ بِنَاءِ الدِّينِ، وَعَمُودُ فُسْطَاطِ الْيَقِينِ. وَدَرَجَتُهُ تَالِيَةٌ لِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ، الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْعَالَمِينَ»[1]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٣-٢٤).

ب- الحق:

حقّ الشّيء في اللُّغة إذا أُحكم وصحّ وثبُت وطابق الواقِع الموضوعي له؛ وحققت الأمر وأحققته إذا كنت على بينة منه، ومِنه سُمّي يوم القيامة حاقّة؛ لأنَّها ساعة لا ريب فيها تُجمع فيها الخلائق للحساب[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مكتبة دار الصفا، المجلد٢، ص٢٤.

(٢) انظر: لسان العرب، المجلد العاشر، ٤٩/٥٤.

ويستعمل الله عزَّ وجل مفردات (حقَّ، حقَّت) كثيراً في القُرآن بالمعنى المذكُور.

والحق مِن أسماء الله الحسنى؛ لأنّ وجوده ثابت لا مرية فيه، وأفعالُه صدق لا معقّب لها ولا مستدرك، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ (يونس:٣٢)، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ (الأنعام:٦٢)، كما وصف الله تعالى كتابه بالحق في قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ (فاطر:٣١).

ولفظة الحق من الألفاظ المحورية، التي لها دلالات واسعة وحضور بارز في عديد من الآيات القرآنية، تتصل بتبيان مفاهيم الإيمان وإثبات أحكام الإسلام وقضاياه وقيمه، وتؤكد أن القرآن الكريم مصدر الحق ومنبعه، ولا يستحق الوصف بالحق على وجه الكمال إلا كتاب الله تعالى.

والحق نقيض الباطل، ومن ثم كان الحق صدقاً باعتباره نقيضاً للكذب.

وفضلاً عن دلالة الحق على الصدق فهو يدل أيضاً على العدل، مما يعني أن الباطل يدل على الظلم باعتبار علاقة التناقض، التي تربطه بالحق. لذا كان سرده عز وجل لقصص الأمم السابقة ومواقفهم من رسلهم يطابق الحقيقة والصدق، يقول تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ (هود:١٢٠)، فهي آية جاءت في أعقاب سرد

لواقع لا ريب فيه، حيث ذكر في السورة قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أممهم، التي ظهرت في عصور متعاقبة، لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وكل المتلقين، الذين يقفون موقفاً مشابهاً في كل مجال من مجالات الحياة.

وفي قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الكهف:١٣) ما ينص بصراحة وحسم أن القصة من واقع التاريخ الحق، تقوم على حقائق، فضلاً عن كون ذلك تأكيداً على أنها واسطة بيانية تبليغية لناموس سماوي، غايته تجذير العقيدة وتوطيد نظام حياة متكامل للإنسانية، وتغيير ما بالنفوس من جهالة وشرك وعبودية لغير الله، نزعت منزعاً واقعياً فصدرت عن مرجعيات تاريخية وحقائق إنسانية، ارتبطت بسير الأنبياء والرسل، عليهم السلام، في أزمنة غابرة، وبأخبارهم وصراعاتهم من أجل رسالات الله.

من هنا كانت قصصهم القرآنية أخباراً لا يمكن إلا أن تنسجم من حيث الأصالة والصدق مع روح الكتاب المبين، الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يصدر عن وهم.

وكان الصدق التاريخي معياراً لحرص القرآن على إثباته وتأكيده، المرة تلو المرة[1]، كي ينساب في حاضر المتلقي ويجيب عن واقعه وإشكالاته. ومما يجلي

---

(١) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني (الجزائر: ١٩٩٨م) ص٦٧.

مقصد الحق والصدق بوضوح، نسبة عملية القص لله عز وجل، فهو المرسِل السارد والفاعل.

ففي الآية السابقة، مثلاً، نجد أنها وردت في مستهل حديثه سبحانه عن أصحاب الكهف، للتأكيد على واقعية القصة، رغم أحداثها الخارقة، التي قد لا يصدقها العقل، وعبر عنها بنون العظمة والجلال ليزيدها وضوحاً أكثر على مستوى التوكيد المعنوي، ويعطيها مصداقية تامة لواقعيتها في سرد الأحداث.

وهكذا الأمر في كل القصص القرآني، يقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، فما يقصه السارد الحق، يتطلب متلقياً يمتلك الأدوات الإجرائية لرؤية واستجلاء الحق والموعظة والذكرى، من أجل تفعيلها في ممارساته وسلوكياته، وينفعل بها بفكره ووجدانه. فهو وإن لم يحضر أحداثها وزمانها، إلا أنها تنساب في واقعه حية، بشكل مباشر، خاصة حين يخاطبه تعالى عبر خطابه لرسول الله ﷺ، في مثل قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (القصص: ٤٤).

٣- مقصد الحسن والجمال:

أ- الحسن:

الحسن يأتي بمعنى الجميل، كما يأتي بمعنى الجيد النافع، وهو ضد القبح ونقيضه[1]. والمرأة حسناء، ولذلك يصف الله تعالى جمالها بالحسن، سواء المادي كما في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ (الأحزاب:٥٢)، في إشارة إلى جمال المرأة، الذي جُبلت عليه، المرتبط بأنوثتها، أو المعنوي المتعلق بجمالها المعنوي المرتبط في التصور الإسلامي بالإحسان في العبادة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٩).

وقد تعدد ذكر هذه اللفظة في القرآن الكريم بما يفيد أنها ترتبط بمفهوم الجمال الموجود في الكون، فعلى امتداد الآيات الكريمة، التي تضمنت لفظة «الحسن»، يجد المتلقي نفسه أمام مجموعة من العلاقات، تبين بجلاء ملامح الجمال والحسن، ابتداء بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، مروراً بالإحسان إلى النفس وإلى الآخر مهما كان، والدفع بالتي هي أحسن في كل المواقف والحالات.

---

(١) انظر لسان العرب، المجلد ١٣، ص١١٤.

كما تكررت صفات الحسن في القول والقرض والموعظة والأسوة والجدال وغيرها من الأفعال، التي تتجمل بالحسن. يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩)، فالصحبة الموصوفة بالحسن تفيد قمة الجمال في العلاقات الإنسانية، كما تفيد قمة الإحسان والرفقة الطيبة، يقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣)، ليس مع الآخر فقط، وإنما مع النفس أيضاً، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:١٨).

فمثل هذه الأمثلة القرآنية، منظومة من المواقف والصور والمشاهد والتطبيقات، التي يسكنها الجمال من كل ناحية، تزداد مع القص القرآني تألقاً، وتأخذ بالألباب كلما تطور التصوير وتنوعت المشاهد، طبيعية كانت أم إنسانية. فحُسن العرض والسرد والدلالة من أسرار القصص القرآني، لعل ذلك راجع إلى بنيته اللغوية والفنية، أو إلى اشتماله على التناسق والتناسب مع ما سبقه وما لحقه من السور الكريمة، والتناسق بين فاتحته وخاتمته، فضلاً عن التناسق والتناسب مع السياق الخارجي، الذي نزل في ظلاله، والتناسق الإيقاعي والنظمي، أو إلى تضمينه الحبكة الفنية في بناء الشخصيات وتطورها، وتناسق وتناسب كذلك مع الأهداف العامة والخاصة

للسورة نفسها وسور القرآن الكريم عامة، أو إلى المعاني المباشرة والإيحاءات الدلالية، التي تأخذ بيد المتلقي نحو وجهة اتخاذ القرار.. إنه كل ذلك وأكثر مما نكتشفه مع كل قراءة متأنية للقصص القرآني.

ب- الجمال:

الجمال مصدر جميل والفعل جمل.. قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني، ومنه الحديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»(أخرجه الحاكم في المستدرك)، أي حسن الأفعال، كامل الأوصاف[1].

وقد وردت لفظة الجمال في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها قوله تعالى يصف الصبر: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج:٥)، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨)، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (يوسف:٨٣).

ويصف الصفح في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥).

---

(١) انظر: لسان العرب، المجلد ١١، ص١٢٧.

ومنها قوله تعالى ناعتاً الهجر والسراح[1] بالجمال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا ﴾ (المزمل:١٠)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب:٢٨)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب:٤٩).

كما وردت في وصف الإبل في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٦).

ودعوة الله تعالى الإنسان بالتمسك بدلالات الجمال في مواطن قد يكون فيها أذى وظلم يشير إلى أن الجمال قيمة أخلاقية وسلوكية. فهو مطلب أساس لتيسير حياته، يقول القرطبي في معرض حديثه عن تفسير الآية السابقة: «قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال؛

فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر؛

وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد؛

---

(١) هو الفراق كما ورد عند المفسرين.

وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان {..}؛ ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً {..} ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك، والله أعلم»[1].

فالإحساس بالجمال وتوطينه في النفس الإنسانية، يجعل السلوك مشرب بترشيد تصرفات الإنسان وانفعالاته ومواقفه في جميع حالاته، لتتحول المشاعر السلبية إلى أخرى إيجابية، تمنح طاقات البناء وليس الهدم. فيتحول الهجر والسراح والصبر وغيرها من المواقف الانفعالية، وردات الفعل الصادرة عن الذات، التي تشعر بالظلم والأذى، تتحول بالسلوك الجمالي إلى مواقف للصلح والتقويم والاستيعاب والعفو.

وتضمين القصة القرآنية مثل هذه الدلالات، تكشف عن وحدة القيم بينها وبين باقي أجزاء القرآن الكريم. فدعوة نبي الله يعقوب، عليه السلام، الذي ابتلي بفقدان فلذة كبده، وأعز أبنائه إلى قلبه، ليس بالتحلي بالصبر فقط، وإنما بالصبر الموصوف بالجمال ليصبح وسيلة تربوية مهمة في التأثير على المتلقي، الذي قد يبتليه الله في أي موقع أو مجال من مواقع

---

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء العاشر.

ومجالات الحياة، فيجد فيه ما يخفف به من وطأة الأحزان الجاثمة على صدره، سواء في السلوك والممارسات في بناء العلاقات، أم بالتعرف والتقرب من عظمة الله وجلاله وملكوته.

والحضور القوي للآيات الداعية للتأمل في آيات الله باستحضار مفهوم الجمال تسعف المتلقي على تذوق ما في المخلوقات من روعة وإبداع، للوصول إلى معرفة قدرة الله وعظمته، إذ الكون بكل ما فيه من تناسق وروعة وجمال وحسن يشكل لوحات فنية رائعة، تأخذ بيد الإنسان لمعرفة خالقه.

وهناك آية صريحة، تعلن أن القصص القرآني أحسن القصص، وحُسنها متناسق ضمن منظومة الوحي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف:٣)، ووردت الآية في مستهل سورة يوسف، وهي من السور المكية، التي فيها من الأنس والرحمة ما يملأ قارئها طمأنينة ورضا، وفيها من الابتلاء تلو الآخر، الذي يعقبه الفرج ما يجعل المتلقي يأمل في رحمة الله.

وقد نزلت في العام الذي توفي فيه أبو طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان يحميه، وهو العام الذي توفيت فيه زوجته خديجة، التي وقفت إلى جانبه وواسته. وقد حزن عليهما ﷺ، فجاءت هذه السورة لتذكره بجمال الفرج بعد الشدة وبحسن الفرح بعد الحزن، وضمن السورة قصة يوسف، عليه السلام، وما حصل له من الابتلاءات.

والآية جاءت بوصفها توطئة لقصة يوسف، عليه السلام، أفضلية وحُسن القصص في القرآن، لأنها منتقاة من مجموع قصص كثيرة منتشرة في الفضاء الزماني والمكاني للتاريخ البشري، لتخضع للأهداف والأغراض الربانية، التي تقيس ما تعرضه القصص القرآني بمعايير الحسن والكمال والجلال والجمال.

ولفظة ﴿أَحْسَنَ﴾ من صيغ أفعل التفضيل، الأمر الذي يجعلها وصفاً للقصص القرآني، مقارنة مع ما يعرض خارج القرآن، ينتمي إلى الجنس الأدبي نفسه. فهذا إيحاء أن هناك قصصاً إنسانية حسنة، لكن ما يُعرض في القرآن الكريم أحسن وأفضل وأجمل، خاصة أن عملية الانتقاء في هذه القصص لا يتم على مستوى الأحداث، وإنما على مستوى الشخصيات الإنسانية، من أجل تحقيق مبدأ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، التي ترتقي بالمتلقي إلى الإيمان بالحق، وتذوق الجمال الكامن فيها، وإنزال القيم المبثوثة في أعماقها على سلوكه وممارساته وعلاقاته.

الفصل الثاني

بلاغة القص وجمالية تلقيه

المبحث الأول

جمالية الانسجام والتناسب

يعد مصطلح «الانسجام» أحد المصطلحات المحورية، التي تندرج في مجال لسانيات النص[1]، الذي يبحث في تماسك النصوص وتعالقها، ويدخل فيه الترابط الموضوعي للنص، الذي يجعل من النص وحدة دلالية، ومن مظاهره أيضاً اشتمال النص على سيرورة واستمرارية وتطور واتجاه نحو غاية محددة، تضمن له التدرج والانتقال، وتنفي عنه الانتقال غير المسوغ[2].

فهو يسعى إلى تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات النسقية المفضية إلى اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية.

---

(١) تسعى لسانيات النص إلى تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات النسقية المفضية إلى اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية.

(٢) عبد الرحمن بودرع، انسجام النص القرآني وتماسك بنائه، ضمن كتاب بلاغة النص القرآني (منشورات مركز الدراسات القرآنية، ٢٠١٤م) ص٩٧.

وقد تميز هذا العلم في العصر الحديث بتعدد مدارسه وظهور عديد من المصطلحات الخاصة به كالانسجام والاتساق والتماسك وغيرها، لكننا لا نعدم بعض الدراسات النقدية والبلاغية في تراثنا، التي اهتمت بالتحليل، الذي تجاوز مجال الجملة إلى الوحدات النصية الكبرى، خاصة في الدراسات القرآنية. من ذلك ما قام به ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن»، الذي حاول النظر في القرآن بنظرة شمولية، وتعرض لقضية انسجام النص القرآني؛ والباقلاني خاصة في كتابه «إعجاز القرآن»، الذي تناول فيه قضايا الفصل والوصل وعلاقة بدايات السور بنهاياتها، ودور مقدمة السورة في التماسك الكلي للسورة وترابط موضوعاتها وأجزائها.

ولعل الجرجاني من أبرز من عالج قضايا تصب في وحدة النص وتماسكه وتعالق وحداته، خاصة في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز». بل هناك من المحدثين من يرى بأن لحازم القرطاجني السبق في الاهتمام بانسجام النص وتلاحمه وتحديده لبعض المفاهيم النقدية كمفهوم النظام والتأليف والتلاؤم وغيرها.

وكان للمفسرين أيضاً إسهامات مهمة في هذا المجال، خاصة الترابط بين السور والآيات والمناسبة بينها. ويعد برهان الدين البقاعي في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» من أبرز المفسرين، الذين ذكروا مقصد السورة ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها وما بعدها من السور، كما اعتنى الإمام السيوطي في مصنفه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» بذكر وجوه إعجاز

العلم بتناسب الآيات والسور. كما اهتم بذلك أيضاً بعض المفسرين المحدثين أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وسيد قطب في كتابه: «في ظلال القرآن»... وغيرهم.

والمناسبة في اللغة هي المشاكلة والمقاربة، يقال: فلان يناسب فلان، فهو نسيبه، أي قريبه[1]؛ وفي الاصطلاح: جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[2].. والبحث في علم «المناسبة» هو بحث في انسجام النص.

وعلى العموم، فإن جمال القرآن الكريم في ذلك الانسجام والتناسب والتناسق، الذي يجمع بين أجزائه وسوره. وقد درس بعض المستشرقين القرآن الكريم، لكن أغلبهم ابتعد عن الإنصاف والموضوعية، واستخلصوا أن القرآن الكريم كتاب غير منسجم، ولا تتحقق فيه النصية[3].

إلا أن هناك من كان منصفاً، واحتفظ بالنظرة العَلمية كالمستشرق الفرنسي «جاك بيرك» في كتابه «إعادة قراءة القرآن»، الذي رأى أن القرآن يعرف ترتيباً خفياً[4].

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نسب، المجلد١، ص ٧٥٦.
(٢) انظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/١٠٨.
(٣) نوال لخلف، الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أنموذجاً، ص١٢.
(٤) JACQUES BERQUE, RELIRE LE CORAN,ED ALBIN MICHEL: PARIS:1993, P:20-21.

من هنا يمكن أن يمثل الانسجام بعداً مهماً في دراسة القصة القرآنية، لارتباطه بجوانب التناسب والتناسق في أمور كثيرة يكشفها المتلقي، وهو لا يمكن أن يكون مظهراً خطابياً واحداً من مظاهر خطابية أخرى في المستوى الدلالي بل هو مظهر خطابي متعدد الجوانب والأبعاد[1].

وهناك عدد كبير من مظاهر الانسجام في القرآن الكريم، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها كتماسك البناء وتناسب الأجزاء، والمقابلة، واللف والنشر، والمقدمة والخاتمة، والزمن والفاصلة، وذلك من خلال أنموذجين اثنين، أنموذج سورة الكهف، لاحتوائها على مجموعة من القصص القصيرة، وسورة يوسف لاحتوائها على قصة طويلة.

١- سورة الكهف:

إن البناء، الذي تقوم عليه القصة القرآنية، بناء محكم، يخضع للغرض، الذي سيقت له، ضمن سياق السورة، التي وردت فيها. وبما أن طريقة التحليل الممكنة للوقوف على النظام، الذي يقوم عليه أي نص يقوم على اعتباره صنفاً قابلاً للتحليل إلى مكونات والتي بدورها تكون قابلة للتحليل إلى مكونات أصغر وهكذا[2]، فإن الوحدة الكبرى، التي تنبني عليها سورة الكهف هي التركيز على العقيدة.

---

(١) انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ص٢٨.

(٢) انظر: علم أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ٢٨/١.

فهي من السور، التي تضمنت مجموعة من القصص، ترتبط فيما بينها بوحدة الغرض، الذي هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر والقيم بميزان هذه العقيدة.

وهي مكية بالاتفاق، نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى[1]، وقد أجمع عدد من العلماء على أن تصحيح العقيدة ووضع منهج رباني للفكر والقيم هو الطابع العام، الذي تشتمل عليه السور المكية بصفة عامة.

وسياق الموضوعات الرئيسة في قصص سورة الكهف يقوم على تقرير حقائق العقيدة، ويرتبط بمجموعة من القضايا، التي عرضتها:

قصة أصحاب الكهف، تحكي عن فتية هربوا بدينهم، لينجوا من بطش السلطة الظالمة. وهم أنموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله، هرباً بالعقيدة أن تُمس[2].

وقصة صاحب الجنتين تحكي عن رجل أنعم الله عليه، لكنه تجبر وطغى، ولم يحسن شكر النعمة، في مقابل الرجل المؤمن بالله، والمستصغر لزخرف الأرض.

وقصة موسى، عليه السلام، والرجل الصالح تحكي عن الفرق بين الحكمة الإنسانية العاجلة، والحكمة الكونية الآجلة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/٢٤٢.

(٢) انظر: محمد الحسناوي، دراسة جمالية بيانية في أربع سور، الإسراء، الكهف، مريم، طه، ط١ (دار عمار، ٢٠٠٦م) ص٨٠.

أما قصة ذي القرنين، فهي تحكي عن الملك العظيم، الذي جمع بين الملك والقوة، وحكم بمنهج الله، وأرجع كل خير إلى رحمته تعالى وفضله عليه.

وكل الموضوعات تصب في إطار قضية الفتنة، التي قد تصيب الإنسان، فتنة الدين، فتنة المال والولد، فتنة العلم، فتنة السلطة، وكيفية مواجهتها من خلال أمثال ونماذج حية، تنتقل بالمتلقي ليعيش أجواءها ومزالقها وتجنب الوقوع فيها.

وهذا خيط ناظم لمجموع القصص، يكشف عن الصراع الحاصل بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين المحيطين به. فإذا كان على بينة من دينه وإيمانه، فإن الصراع يتنقل من الداخل إلى الخارج، كما في قصة الفتية وذي القرنين والأحداث، التي وقعت لموسى، عليه السلام، والرجل الصالح، أما إذا كان مغتراً بنفسه ظالماً لها، فإن الصراع يتحول من الخارج إلى الداخل. وهو صراع يجلّي حقيقة العقيدة وكيفية تصحيحها بمخاطبة المتلقي، سواء كان المتلقي الأول، الذي جاء الخطاب باسمه، وهو رسول الله ﷺ، أم كان بمجموع المتلقين من أول نزول الوحي إلى ما شاء الله للبشرية أن تبقى.

لذلك نسمع في تقديم قصة أهل الكهف مخاطبة الله عز وجل لرسوله ﷺ بالصبر والتأسي بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦)، ونسمع في ختامها التذكير بمشيئة الله ودعائه للهداية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ (٢٣-٢٤).

وفي بداية قصة صاحب الجنتين نسمع توجيه الله لرسوله وللمؤمنين بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ (٢٨)، ونستمع في ختامها إلى قوله تعالى بخطاب ضمني: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ (٤٤)، للتأكيد على حتمية الجزاء.

وفي بداية قصة موسى، عليه السلام، مع الرجل الصالح نستمع إلى قول موسى مؤكداً عزمه على الصبر في طلب العلم، يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ (٦٠)، وتختم بحديث الرجل الصالح مقرراً استعجال الإنسان مهما بلغت درجات صلاحه ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ (٨٢).

وفي بداية قصة ذي القرنين يقول تعالى مخاطباً نبيه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ (٨٣).

وفي ختام القصة نستمع إلى التقييم الرباني للأعمال وللقيم وللإنسان، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ۝ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ (١٠٢-١٠٤).

وبالإضافة إلى وحدة الخطاب الموجه إلى رسول الله ﷺ الناظم لبدايات القصص ونهاياتها، نجد تناسباً بينها وبين بداية السورة ونهايتها، فقوله تعالى

مركزاً على ذكر الوحي القيم المنزل على نبيه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (١-٢) منسجم مع خاتمتها، التي يطلب فيها من نبيه، عليه السلام، مخاطبة قومه للتأكيد عليهم أن الوحي من عند الله، وأنه لا عاصم إلا توحيد الله والعمل الصالح.

وهذا الانسجام الناظم لوحدة الخطاب، نجد فيه تلك البراعة فيما يعرف في البلاغة بالاستهلال وحسن التخلص، فهما لا تقحمان المتلقي في الموضوع مباشرة، وإنما تحضّره نفسياً لتَلقّي أحداثها، وما يمكن أن تتركه فيه من آثار في عقله ووجدانه.

كما رأينا أن بداية كل قصة تفتتح بصيغ مختلفة يوحد بينها الخطاب المتوجه نحو المتلقي الأول لها وهو رسول الله ﷺ، فهي بدايات تخضع لتكوين سردي يتجلى في كل عتبات الولوج إلى القصة والخروج منها.

والصراع والتضاد يتجلى منذ البداية بين رسول الله ﷺ والمشركين، وهو صراع كان منذ الأزل، منذ آدم، عليه السلام، وإبليس. وقد أشار الله عز وجل إلى هذا الصراع الأزلي في السورة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠)، ليربط بينه وبين أوجه الصراع في القصص. ففي قصة أهل الكهف، كان هناك صراع بين

السلطة المشركة الظالمة وبين الفتية المؤمنين الهاربين إلى الكهف، وفي قصة صاحب الجنتين كان الصراع بين الغني المتكبر والفقير المؤمن، وفي قصة ذي القرنين، كان هناك «أكثر من صراع في رحلاته الثلاث، بين مَن ظَلم ومَن لم يَظْلم، بين يأجوج ومأجوج وبين الآخرين»[1].

وهذا الصراع العام هناك أفضى إلى تقابل محوري في المواقف، التي تخللت القصص كلها، أضفى على القصص تماسكاً مميزاً.

فقد صيغت الموضوعات وفق بناء تقابلي، مثل موقف أهل الكهف، الذي يجسد نبذاً للحياة الاجتماعية، التي كانوا يحيونها، أي نبذ زينة الحياة الدنيا، في مقابل موقف صاحب الجنتين، المتشبث بزينة الحياة الدنيا، المتمثلة في المال والنفر والأعناب. والتقابل بين موقف الكافر المتكبر على نِعم الله عليه، وموقف المؤمن، الذي كان يحاول إرشاد صاحبه.

كذلك وقع التقابل على مستوى الشخصيات بين الكافر المتكبر نفسه، الذي كان يملك جنتين، واعتقد أنها لن تبيد أبداً، وبين ذي القرنين، الذي كان يملك المشرق والمغرب، لكنه كان يقر برحمة الله وبنعمته عليه.

كما تمت المقابلة على مستوى المكان في إطار البناء والهدم: بناء مسجد على الكهف، بناء الجدار المنقض، بناء الردم بين السدين؛ أما الهدم فيتمثل في خرق السفينة، الجدار قبل ترميمه، دك الردم بين السدين حين يأتي وعد الله.

---

(١) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص٨٧.

ومن لطائف المقابلة حالات الخفاء والظهور، كما حدث لأصحاب الكهف، والكنز المدفون، ويأجوج ومأجوج، فجميعهم يمثل حالة الاختفاء عن الأنظار، أو الدفن تحت الأرض تعقبها حالة الخروج أو الظهور. ومثل هذه المقابلات، التي يستشفها المتلقي، تنسج خيطاً ناظماً يحقق الانسجام والتناسق بين أجزاء السورة.

ولا تقتصر المقابلة على الجانب الدلالي وإنما تتم على مستوى الجانب اللفظي أيضاً، وأمثلة ذلك كثيرة في قصص سورة الكهف، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ (١٨).

وللزمن في قصص السورة حضور عميق، فيه من الانسجام والاتساق الشيء الكثير، وهذا الحضور مبعثه زمن الحاضر المتلقي للقصص، سواء كان حاضر رسول الله ﷺ، أم حاضر من يتلقى القرآن، وغيب الماضي والمستقبل، الذي لا يعلم حقيقته وأخباره إلا الله.

فزمن قصة أهل الكهف وصاحب الجنتين وموسى، عليه السلام، والرجل الصالح وذي القرنين زمن ماض من الحياة الدنيا، واسترجاع له للتأثير على الحاضر. ويحيل على جدل زمني، يكمن في مدة رقاد أصحاب الكهف، وفي التقدير الخاطئ للمستقبل عند صاحب الجنتين، وفي عدم صبر موسى، عليه السلام، على كشف الزمن المستقبلي، وفي تأخر بقاء يأجوج ومأجوج داخل

الردم. وهكذا تجتمع في هذه السورة كل الأزمنة، أزمنة الغيب وأزمنة الشهادة؛ على أن المسألة ليست حسابية، بل هناك أثر نفسي يؤديه هذا الانسجام والتناسب والتناسق العجيب حين يجتمع الحاضر الدنيوي، وهو زمن الصراع مع الشرك، تصغيراً لمساحته، مع أزمنة القصص الممتد من ماضي الغيب السحيق، إلى مستقبل الغيب الأبدي(١).

وتعد الفاصلة من أبرز مظاهر الانسجام في سورة الكهف، وهي كلمة تأتي آخر الآية(٢)، كقافية الشعر وسجعة النثر، ومن المعلوم أن للفاصلة في التقفية دورها النفسي، سواء في إيقاعها الموسيقي أم في علاقتها الجوئية بالآية، التي ترد فيها أو المقطع في مجموعة آيات، أو علاقتها الكلية بمجمل السورة(٣).

وتختص سورة الكهف بحركة الفتح، التي تتحول إلى ألف مدّ في الإطلاق (كـ: حسناً، حسنًا). وحركة الفتح تضفي أهمية موسيقية على كل فواصل السورة. وقد التزمتها باطراد، وقامت مقام الروي في الشعر، فسوغت تعدد حروف الروي ذات المخارج المتقاربة، وهي حروف اللسان: ق، ج، ض، ل، ن، ر، د، ط، ص، ز، ومثال فواصلها: (مرفقًا، عوجًا، عرضًا، عملا، حسنًا، نهرًا، أبدًا، فرطًا، قصصًا، جُرزًا)، وغير المتقاربة مثل حرف العين الحلقية

(١) انظر: دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص٨٥-٨٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/٥٣.

(٣) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص٨٨.

والحروف الشفوية: ف، م، ب، و، المتحركة بالفتح. ومثال فواصلها: (تسعًا، أسفًا، علمًا، هُزوًا، كذبًا)[1].

ولكل فاصلة من تلك الفواصل دورها وأهميتها في سياقها الجزئي أو الكلي، تضفي على القصص انسجاماً وتناسباً، سواء في الدلالة أم في الإيقاع الموسيقي. ففاصلة ﴿هُزُوًا﴾ مثلاً وردت في موضعين: الأول في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ (٥٦)، والثاني في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ (١٠٦).

و«تكرار فاصلة هُزوا تكرار فني مقصود، لا يراد منه أن تُذكر الثانية بالأولى من باب التناغم الموسيقي وحسب، بل يضاف إلى ذلك، التعقيب بذكر العقاب، الذي جاء نتيجة للجدال بالباطل، واتخاذ الآيات والنذر والرسل مادة للهزء والسخرية، بعد وصف أهوال القيامة: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٨-٨٩.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ (٩٩-١٠٦).

وذلك كله بعد سرد قصة ذي القرنين الحاكم العادل القويّ، الذي قال عن السدّ المحصن بالحديد والنحاس ممزوجين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾، وبعد قصة موسى، عليه السلام، والرجل الصالح، التي أوضحت الفرق بين حكمة الإنسان المحدودة وحكمة الرحمن، التي لا حدود لها[1].

وبالإضافة إلى ما ذكرته سابقاً من الانسجام والتماسك والتناسب الدلالي والإيقاعي، فإن هناك انسجاماً واتساقاً على المستوى الشكلي، وقد وظف القرآن لذلك وسائل كثيرة، وسأقتصر على الروابط ودورها في تحقيق هذا التماسك، كالنعت وعطف النسق[2]، في التلخيص، الذي استهل به الله عز وجل قصة أهل الكهف قبل أن يفصل القول فيها، وذلك في قوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١٠-١٢).

---

(١) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص٩٠/٩١.

(٢) عطف النسق هو تابع يتوسط بينه وبين متبوعه حرف من حروف العطف.

والروابط الموجودة في الآيات تتمثل في العطف في الآية العاشرة بالفاء والواو، وهو ربط بين أربع جمل: ﴿أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾، ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، ويحدث التماسك بين العاشرة والحادية عشرة بالفاء التي وقعت في جواب الطلب أو الدعاء، ﴿فَضَرَبْنَا﴾، ثم يربط بين الآية الحادية عشرة والثانية عشر بـ﴿ ثُمَّ ﴾.

كما تتمثل الروابط في النعت في قوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، فعدداً نعت لسنين. وهذه التوابع نجدها على طول القصص تحقق انسجاماً وتناسقاً، سواء داخل كل قصة على حدة، أم بين القصص ككل.

وبالنظر إلى القضية الأم، التي تعرضها القصص في سورة الكهف، نجد أن مظاهر الانسجام والتناسب تصب في مجال تجلية ثنائية الكفر والإيمان المهيمنة عليها رغم تنوع موضوعاتها. وقد برزت في بلاغة إعجازية، تماهى فيها الانسجام الجمالي مع الانسجام المعرفي، وشكلا معاً وحدة موضوعية، متسقة مع كليات القرآن التشريعية.

٢- سورة يوسف:

وقصة يوسف، عليه السلام، في القرآن الكريم لها طابع خاص، فهي قصة إنسانية اجتماعية شديدة الجاذبية، وهي القصة القرآنية الوحيدة، التي تخصصت لها سورة محددة تحمل اسم النبي يوسف، عليه السلام، وتتميز بأنها تبدأ القصة من بدايتها إلى نهايتها، منذ أن حكى يوسف لأبيه يعقوب الحلم إلى أن التقى يوسف بأبيه وأسرته في مصر بعد وقائع وأحداث مؤثرة.

لذا ستكون محاولة مقاربة مظاهر الانسجام والتناسب فيها تختلف عن سورة الكهف.

ويستهل الله عز وجل سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (١-٣). وهو استهلال يتضمن تأكيداً على ما في السورة من وضوح وبيان وتأدية للمعاني، التي تقوم بالنفوس[1]، وحسن تجلية للقصة المعروضة. وفيه انسجام وتناسب بين ما ورد في آخر السورة، التي قبلها ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، وبين ما سيأتي من سرد لقصة أحد أنبياء الله، عليهم السلام، ووجه التناسب بينهما أن تلك «الأنباء المقصوصة، فيها ما لاقى الأنبياء من قومهم، فأتبع ذلك بقصة يوسف، وما لاقاه من إخوته، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة، ليحصل للرسول ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب».

فقصة يوسف، عليه السلام، من هذا الاعتبار سرد استرجاعي يتناول أحداثاً حقيقية، وقعت في غابر الأزمان، من أجل تأثيره في حاضر المتلقي. والوحدة الجامعة بين الماضي والحاضر تقوم على دعامتين أساستين: الصبر على

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ٣٦٥/٤.

الشدائد، والرجاء في فرج الله ونصره، ثم التقابل بين الشدة والفرج، وبين العسر واليسر. وامتازت بالتسلسل الأحداثي المتواصل، دون أي تقطيع لحركية أحداثها ونموها. فهي من بدايتها إلى نهايتها وحدة سردية واحدة. وإذا كانت هذه القصة استرجاعاً تاريخياً مستهدفاً، يحثّ الرسول ﷺ على رؤية ماضوية بما فيها من إشارة له، لحدث مستقبلي، وهو هجرته إلى المدينة، وما سيكون له فيها من النصرة والقوة، فإن هذه الوحدة بالنسبة إلى المتلقّي في العصر المعاصر، استرجاع مزدوج.

وهذه الثنائية تعمل أضعافاً مضاعفة؛ فالرسول ﷺ يتذكر يوسف، والمتلقّي المعاصر يتذكر ما جرى لرسول الله ﷺ أولاً وما جرى لنبي الله يوسف، عليه السلام، ثانياً[1].

وتنقسم القصة إلى مراحل زمنية متتالية، وحلقات سردية تتبع مسار تطور الشخصية الرئيسة فيها وهي يوسف، عليه السلام، مرحلة الطفولة، ومرحلة الشباب، ومرحلة القيادة.

المشهد الأول من المرحلة الأولى يبدأ برواية يوسف، عليه السلام، لوالده الرؤيا، التي رآها، وتحذيره من حكيها على إخوته: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ

---

(١) دراسة نقدية في توظيف الاسترجاعات في قصة يوسف، حسين كياني وسعيد حسام، مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الرابع عشر، ٢٠١٣م، ص١٥٥.

﴿٥﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤-٦).

ويتميز السرد باتكائه على الرؤيا، التي قدمت الشخصية الرئيسة في القصة، وهي يوسف، عليه السلام، في علاقته بأبيه وإخوته، وقد صاحب التقدم تذييل استباقي يلخص المكانة، التي سيصلها يوسف، عليه السلام، مستقبلاً ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦).

ويتتابع السرد في تسلسل بديع، يحكي مجموعة من الأحداث، التي وقعت ليوسف، عليه السلام، في ترابط وانسجام، منذ إلقائه في البئر وإنقاذه إلى استقراره في قصر العزيز، يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ (١٩-٢٠).

وقد تتالت الأفعال في الآيتين الكريمتين تتالياً سريعاً، رشيقاً، بالفاء العاطفة، التي تفيد ترتيب حدوث الأفعال وتعاقبها دون فارق زمني يذكر، وهذا معناه أن المسافرين لما صاروا على مقربة من البئر أسرعوا في إرسال من يجلب

لهم الماء ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾، فأسرع هذا بدوره ملبياً حاجتهم إلى إحضار الماء بسرعة ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ وهنا تختفي (الفاء) ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ﴾، ولم يقل الله سبحانه وتعالى: (فقال يا بشرى) ذلك أن البشرى تقتضي المفاجأة، وهذا ما يتحقق بحذف الفاء لتأتي العبارة مفاجئة، للدلالة على البشارة. ثم يضع السرد المتلقي أمام طلب العزيز مباشرة، وذلك بأخذ امرأته الطفل وجعله ولداً لها، كي تربيه وتكرم مثواه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (٢١).

ويختم الله هذه المشاهد من طفولة يوسف، عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١). وهنا أيضاً تذييل استباقي، يجعل المتلقي يتوقع انفراج الأزمات على يوسف، عليه السلام، رغم ما يصيبه من ابتلاءات، ويربط الأحداث السابقة باللاحقة.

وينتقل السرد من فترة طفولة يوسف، عليه السلام، إلى مرحلة الشباب بشكل جمالي بارع يطوي الفترة الزمانية: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)، ليلتقي المتلقي مباشرة مع ابتلاء آخر يهزه ويصدمه، لتتوالى الأحداث بعد ذلك في تتابعٍ تصاعدي، ودقة متناهية، تشهد بالإعجاز البياني في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (٢٣-٢٩).

من بداية هذه الآيات تحضر امرأة العزيز في السرد، يستهلها عز وجل بلفظة المراودة، والرود هو التردد في طلب الشيء برفق، ومنه الرائد لطالب الكلاء، والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء، والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد، فراودته، أي سعت في طلبه بشتى الوسائل[1]، وقوة اللفظة الدلالية تكشف عن موقف المرأة من فتاها، الذي ربته، وعن بلوغ الحدث درجة كبيرة من التعقيد والتوتر.

ويزداد إحساس المتلقي بعظم الجرم، الذي تسعى إليه امرأة العزيز بتوظيف ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ بدلاً من يوسف؛ لأن الإتيان بلفظة البيت في غاية الدقة، والدلالة المتولدة عن توظيفها أعم وأعمق من توظيف أي لفظ آخر.

---

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الثالث، ص ١٨٧-١٩١.

وتتطور الأحداث وتتنامى بإيقاع سريع وانسجام بديع: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، وقصد السرد تشديد الفعل للتكثير[1]، للدلالة على مدى حرصها على الإطباق على يوسف، عليه السلام. وقالت ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي تعال، لقد تهيأت لك. كلمة من ثلاثة حروف تختصر دلالات عدة معبرة عن استسلام وتزين ورغبة المرأة في يوسف، وعن أمر مولوي يصدر عن سيدة لخادمها. فهيت لك تدل على إعمال المولوية والسيادة مع إشعار يوسف بأنها هيأت له من نفسها ما ليس بينه وبين طلبها إلا مجرد إقباله عليها. ويبادر يوسف إلى القول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، والمراد بربه هنا: سيده، أي زوجها، الذي اشتراه من مصر والذي كان قد قال لامرأته حين أتى به: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١)، فهو أوصى به امرأته، فقال لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، لذا قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، والضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ معلوم بينهما، وهو زوجها. فالتناسب قائم بين كرم المثوى وحسن هذا المثوى.

كما أن هناك تقابلاً بين الخيانة في موقف امرأة العزيز والإخلاص في موقف يوسف، عليه السلام، لقد رفض الخيانة؛ لأن الله أتاه العلم والتقوى، فاستحيى أن يخون، الذي أكرم مثواه، فعدم الخيانة لها سبب ذاتي هو تقوى

---

(١) انظر: القرطبي، ١٦٢/٩.

يوسف، عليه السلام، وسبب موضوعي هو الإخلاص لمن أحسن مثواه. وتوظيف الأسلوب الحواري هنا كثّف البنية السردية، وترك الأحداث تتسارع من خلاله، فتعددت الصور، وتنوعت مظاهرها النصية، وقدمت كل شخصية حسب القيم، التي تحركها، وتنتج مواقفها وأفعالها. ويردف الله تعالى في هذا السياق تذييلاً مناسباً يؤكد قيمة الإخلاص في الممارسة السلوكية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤).

ويتصاعد التوتر والصراع، فالمرأة لم ترتدع رغم رفض يوسف، عليه السلام، وحاولت معه مرة أخرى، فيهرب منها، ويجري إلى الباب يحاول الخروج فتسابقه، تريد صرفه، وتشق قميصه من شدة لهفتها عليه.

وفي تلك اللحظات الحرجة يدخل العزيز، وكان للمرأة من سرعة البديهة والمكر ما حاولت بهما قلب الصورة، التي يشاهدها العزيز أمامه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف:٢٥)، وحاول يوسف دفع التهمة عنه، فـ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾، وكان أحد الأهل حاضراً، فتدخل ليحكم بينهم: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ

عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٢٦-٢٩).

فالشاهد أسند للقميص عملية الفصل بين يوسف، عليه السلام، وامرأة العزيز. ورأى العزيز الدليل، وظهرت براءة يوسف، عليه السلام، واضحة بجلاء، لكن رد فعل العزيز على خطيئة زوجته لم يكن مناسباً، وهذا يدل على البيئة المتفسخة، التي كان المجتمع يعيش فيها، بحيث أصبحت الفاحشة شيئاً عادياً لا يثير، لذا اكتفى العزيز بقوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٨-٢٩)، والتأكيد على الكيد الوارد هو وصف العزيز للنساء جميعاً، وليس وصف الله تعالى لهن، فالأمر يتعلق بالنظرة التاريخية للمرأة، وظفها العزيز كي يعلن عن موقفه وموقف المجتمع منها، وهو موقف خاطئ ينتج عنه تصرف غير مسؤول: انس يا يوسف، ولا تذكر ما حصل، وتراجعي يا زوجتي، إنك خاطئة!!

ومع ما استجد من أحداث ندرك أن العزيز ظل سلبياً تجاه هذا الأمر الخطير، الذي وقع في بيته وعلى مرأى منه، وظلت المرأة مصدر غواية ليوسف، عليه السلام، داخل البيت، الذي يجمعهما. وانتشر الخبر، لتنتقل الأحداث من البيت إلى المجتمع في تصاعد متناسق: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٠).

وقد وظف الله تعالى لفظة المراودة نفسها للتعبير عن تكرار الأمر وذيوعه، ويؤكد استمرارية الضغط على يوسف، عليه السلام، ومعاناته. ويجد المتلقي نفسه إزاء صورة قصصية حوارية تتحدث فيها النسوة عن خطيئة امرأة العزيز، مركزة على ثلاثة عناصر متداخلة ومترابطة:

العنصر الأول، هو المراودة بما يحمله من ثقل دلالي، وجاءت بصيغة المضارع مع كون المراودة مضت، لقصد استحضار الحالة العجيبة، واستنكارها في أنفسهن ولومها على صنيعها.

العنصر الثاني، هو توصيف حالة امرأة العزيز، التي وصلت إلى حالة الشغف، أي أن حب المرأة اخترق الشغاف فبلغ القلب، كناية عن تمكنه فيه[1].

العنصر الثالث، الحكم عليها، والضلال هنا يعني مخالفة طريق الصواب، أي هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى[2]، وليس المراد الضلال الديني، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف:٨).

ويسترسل السرد في تتبع الأحداث بسماع امرأة العزيز ما يدور من لغط حولها، فتدبر حيلة كي تُري يوسف، عليه السلام، للنساء، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ٢٢٥/١٢.
(٢) المصدر نفسه، ٢٢٧/١٢.

لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١). وأعتدت: أصله أعددت، أبدلت الدال الأولى تاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء:٣٧).

فالسياق هنا يكشف عن مشهد من إعداد المرأة المفتونة بيوسف لمواجهة مكر النسوة، فنجدها هيأت مجلساً فخماً، مناسباً للطعام ولمداولة الحديث بين نساء الطبقة الأرستقراطية، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً، وقصدت من تقديمه أن يؤدي وظيفتين: وظيفة ظاهرة في سياق الآية تدل على التقطيع، ووظيفة مضمرة ترمز إلى دلالات القسوة والانتقام وطغيان الشهوة الكامنة في نفس امرأة العزيز. وكلها دلالات لها وقع خاص على تحريك مشاعر المتلقي والتفاعل مع الحدث بشدة، وانتظار ما سيسفر عنه، بعد أن أمرت يوسف، عليه السلام، بالخروج إليهن. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، فهذه عبارات الإعجاب والدهشة والذهول، وهذا ما كانت تريد امرأة العزيز أن تصل إليه، لذلك قالت قولة تكشف عن إصرارها على إغرائه بفعل المعصية، وإن لم يستجب فسيكون مصيره السجن: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢).

ومن خلال الدعاء، الذي ناجى به يوسف، عليه السلام، ربه في خضم هذا المشهد، نفهم أن فعل الإغراء والفتنة لم يكن مقتصراً على المرأة فقط،

وإنما انتقل منها إليهن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ (يوسف:٣٣)؛ لأن فعل الدعوة مسنود للجمع. فالحرية هنا مقابلة للخيانة، والإخلاص مقابله السجن.

وفي غمرة الدعاء يجد المتلقي نفسه أمام لفتة إنسانية مبهرة تثير مشاعره، وتربيه على الالتجاء إلى الله في كل الأحوال، مهما كان صلاحه وقوته في مواجهة مغريات الحياة: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (يوسف:٣٣-٣٤)، «فهي دعوة الإنسان العارف ببشريته، الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء»[1].

وتزداد الأحداث تنامياً، وتتطور المواقف، وتتعقد العلاقات بين الشخصيات، فتتوتر وتتأزم، ويدخل يوسف، عليه السلام، السجن ظلماً وعدواناً. وحين تتاح له فرصة الخروج لا يتلهف عليه، بل يصر على البقاء حتى تُرفع عنه التهمة، التي ألصقت به، ويطلب التحقيق في المؤامرة، التي حيكت ضده، باستجواب النسوة، اللائي حضرن مأدبة المرأة، ليكنّ شاهدات في قضيته: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (٥٠).

(١) في ظلال القرآن، ١٢/١٩٨٥.

لقد رد يوسف، عليه السلام، أمر العزيز باستدعائه حتى يستوثق من أمر التهمة، التي دخل بسببها السجن، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، «تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها. كل أولئك لأنه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً»[1].

ويسكت السرد عن ملابسات التحقيق، ليقدم النسوة مباشرة أمام العزيز، يسأل عن الأمر الجلل، الذي وقعن فيه: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ (٥١)، وكان الجواب واضحاً دون جدال: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (٥١)، وهنا تتقدم المرأة، التي شغفها يوسف، عليه السلام، حباً وحاولت إغراءه بكل الوسائل: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٥١)، «وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ

---

(١) في ظلال القرآن، ١٩٩٤/١٢.

﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ (٥٢)، وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر»[1].

وهنا ينتهي الصراع بين امرأة عاشقة استسلمت لنداءات الشهوة والخيانة، وغيبت قيم الشرف والإخلاص والفضيلة، وبين فتى محفوف بعناية الله، معتصم برحمته، متمسك بكل القيم الإنسانية.. ينتهي لصالحها بعد أن وقع تحول في عقيدتها وموقفها، وتغيير نحو الأحسن.

فالمرأة وإن لم يكشف السرد عن طبيعة التحول، وطبيعة التغيير، الذي جعلها تعترف بأنها المخطئة، وتعلن توبتها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، إلا أن السياق العام يوحي بأن تقوى يوسف، عليه السلام، وموقفه الصارم في مواجهتها، وتمسكه بالله والالتجاء إليه، والدعوة إلى عبادته، كل ذلك جعلها تتغير نحو تحملها مسؤولية الذنب، الذي اقترفته، وتتحول نحو إعلان التوبة، وإعلان مدى ضعف الإنسان أمام نفسه الأمارة بالسوء إلا من رحمه الله واعتصم به سبحانه.

وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف، عليه السلام، وهي مرحلة القيادة، حيث تحققت حكمة الله من الابتلاءات، التي أصابته، وقعد على اقتصاد مصر، يدبره بحكمته وسداد رأيه، وكما بدأت القصة بالرؤيا والوعد

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٩٥.

بالتمكين، انتهت بتحقيق الرؤيا وتحقيق التمكين والنصر والقوة بعد الشدة والسجن والإغراء.

وقد احتف سورة يوسف بالفاصلة، سواء في إيقاعها الموسيقي أم في علاقتها الجزئية بالآية، التي ترد فيها، أو علاقتها الكلية بمجمل السورة. وقد اعتمدت على حرف المدّ، الذي يسبق الروي الساكن مثل: عظيم، مبين، يشكرون. وزاوجت بين الفاصلة المتجانسة كالصالحين والزاهدين والظالمين، وبين الفاصلة المتقاربة كيسير وعليم. وقد تراعي الفاصلة الفواصل السابقة واللاحقة لتناسب بينها، في مثل قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (٤٦)، فقد تكررت كلمة «لعل» مراعاة لفواصل الآيات السابقة واللاحقة المختومة بالنون.

إن المتتبع لأنواع العلاقات في تناسب قصة يوسف، عليه السلام، وانسجامها، يذهل من تنوعها وتأثيرها على المتلقي، كالالتفات والإجمال والتفصيل والاستطراد والفاصلة وغير ذلك، وحسبي أنني حاولت أن أجدد التعرف على بعض هذه الأنواع ومستوياتها، بفضل الله وعونه.

المبحث الثاني
جمالية التصوير والتشخيص

ترد الصورة في كلام العرب على معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، والمصوِّر من أسماء الله الحسنى، الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها، على اختلافها وكثرتها[1]. ويعتبرها قدامة بن جعفر الوسيلة أو السبيل لتشكيل المادة وصوغها، شأنها في ذلك شأن غيرها من الصناعات[2].

وهي مصطلح عام وشائع اهتمت به مجموعة من العلوم، واستخدمه النقد الأدبي، قديماً وحديثاً، يقول الجرجاني: «واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبين إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك منه، كذلك الأمر في المصنوعات، فكان بين خاتم من خاتم، سواراً من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: المعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك. وليس

---

(١) انظر: لسان العرب، المجلد ٤، ص٤٧٣.

(٢) بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ص ٢٢.

العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: «وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير»[1]، الأمر الذي يعني أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأنَّ المعنى الذي يُعَبِّرُ عنه سبيل الشيء، الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار.

فكما أنَّ محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظرَ إلى الفضة الحاملة لتلك الصورةِ أو الذهب، الذي وقع فيه العملُ وتلك الصنعةُ. كذلك محالٌ إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه[2].

أما التشخيص لغة فهو يدل على الارتفاع والظهور[3]، وفي الاصطلاح فهو إسناد صفة من يعقل، أي الإنسان، إلى ما لا يعقل من المحسوسات والمعنويات، بحيث تبدو وكأن لها حواس الإنسان ومشاعره، ومخاطبة ما لا يعقل بخطاب من يعقل وتقديمه في صورة معينة[4].

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية ود. فايز الداية، ط٢ (دمشق: مكتبة سعد الدين، ١٩٨٧م) ص٤٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٢٥١.

(٣) انظر: لسان العرب، المجلد السابع، ص٤٥.

(٤) انظر: المعجم الأدبي، جبّور عبد النور، ص ٦٧؛ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٦٣-٦٤.

ولعل الفراء قد أشار إلى هذا النوع من التصوير في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١) فقال: «عبر عن الأسماء بلفظ العقلاء»[١].

وبما أن للنص الأدبي تركيبته الخاصة، فإنه يمنح التصوير مجالاً للتكوين والنمو، لذا كانت بلاغة التصوير جمالية معجزة في القرآن الكريم، خاصة في القصة، حيث يشكل مكوناً رئيساً فيها، تتحرك من خلاله الصورة وتقدم فضاءات جمالية ودلالية للتأمل والتدبر. فهو يمثل الأداة المفضلة والشائعة في القصة القرآنية، إذ «يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحهما الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مجسمة مرئية.. أما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل»[٢].

ولما كانت قضايا وموضوعات القصة في القرآن الكريم بمثابة تشخيص أنموذجي للقضايا، التي يقدمها، وعرض حي لموضوعاته، فإنها لا تفصل

---

(١) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، ط١ (الدار المصرية للتأليف والترجمة) ص٣٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب.

ولا تفيض في الأحداث أو الشخصيات إلا بقدر ما تحدث في النفس من أثر، وما تهز به أعماقها، لتطلعها على حقائق الحياة والوجود، وما من شأنه أن يتناسب مع أهداف القرآن الكريم وغاياته.

فالإتيان بنماذج من الأمم السابقة، وقص جوانب من حياتهم، وانتخاب مواقف وأحداث تظهر معادن الشخصيات ومواقفها في مواطن القوة والضعف، ومنازع الإحسان والسوء فيها، وتصوير رؤاها وقيمها ومفاهيمها وقناعاتها، ليست سوى رسم تشخيصي للحياة الإنسانية عبر مراحلها، ابتداء من الخلق الأول، وما يطبعها من سموق وهبوط، من تأييد أو اعتراض، من هدي أو ضلال، لكل ما جاء في القرآن الكريم من الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض على وجهها الأكمل بعبادة الله عز وجل.

فتصوير الشخصية أو الحدث أو الموقف أو غير ذلك، مهما كانت وظيفته في حركة الحياة وسيرورتها وجمالها أيضاً، يمثل شاهداً من شواهدها، وملمحاً يؤكد أبعاداً وإفادات متجددة.

وهذه جملة من الصور الجميلة، التي تترك أثراً مبهراً في نفسية المتلقي ووجدانه وعقله.

يقول تعالى في سورة يونس مصوراً النفس البشرية في سرد قصصي بديع:
﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ
ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى

ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا
جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٢١-٢٣).

يفتتح الله تعالى هذه الصورة القصصية ببلاغة لطيفة، يسند فيها الرحمة له سبحانه، ويسند المساس إلى الضراء، وهي إشارة إلى أن ما يصيبهم من شر يكون نتيجة أعمالهم، ويأتي جواب الشرط ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ ليقرر حالتهم بعد الرحمة.

وقد نزلت الآيات في كفار قريش، حيث سلط الله عليهم الجدب والقحط حتى خافوا الهلاك، فجاؤوا إلى سيدنا محمد ﷺ، ليدعو لهم وقد وعدوه بالإيمان، فلما رحمهم الله رجعوا إلى كفرهم وعنادهم ومكرهم بآيات الله[1].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «ومعنى مكرِهم في الآيات أنّهم يمكرون مكراً يتعلّق بها؛ وذلك أنهم يوهمون أنّ آيات الله غير دالّة على صدق الرسول محمّد ﷺ وزعموا أنّه لو أُنزلت عليهم آية

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٧٧٣/٢.

أخـرى لآمَنوا، وهـم كاذبون في ذلك، إنَّما يكذبون عناداً ومكابرة وحفاظاً على دينهم في الشِّرك»[1].

ثـم يأتي عز وجـل بصـورة حـركية يؤكد فيها القدرة الإلهية المهيمنة على الحركة والسكون في البر والبحر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، لتتوالى الصور القصصية بعد ذلك، تحكي عن فرح أهل السفينة والريح الطيبة تجري بهم في أمان وطمأنينة، لكن يفاجأ المتلقي باضطراب السفينة، واستبدال الـذعر بالأمن والغم بالفرح، بعد أن هبت الرياح العاصفة، وضربتها الأمواج من كل جانب.

ولما يتيقن المشركون أنه الهلاك والغرق، تأتي صورة أخرى تعبر عن فطرتهم، التي تُلجئـهم إلى الله في الشـدائد، «فجملة ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾، ومعنى مخلصين له الدين ممحضين له العبادة في دعائهم، أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم. وليس المراد أنهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم، بـل تلـك حـالتهم في الـدعاء عنـد الشـدائد. وهـذا إقامـة حجـة عليهم ببعض أحوالهم»[2].

ثـم تـأتي مفاجأة أخرى بصورة متحولة، حين ينجيهم الله فيشركون به ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، وأتـى الله تعـالى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٣/١١.

(٢) التحرير والتنوير، ٤٦٠/٦.

بحرف إذا الفجائية في جواب لما للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة[1].

وتنتهي الصورة الكلية بتذييل يكنى بالإنباء عن جزاء البغي والظلم والشرك، وإفادة الاختصاص، تنزيلاً للمخاطبين منزلة من يظن أنه يرجع إلى غير الله[2].

إن هذه الصور المتتالية المفعمة بالحركة والتوتر وتغير الأحوال والهيئات تشخيص مبهر، وفر له تعالى من البلاغة ما يجعل المتلقي يعيش مراحلها المتنوعة.

ومن بديع ذلك أن الآية «لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمير الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء، وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ على طريقة الالتفات، أي جرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فإن هذا ليس من شيم المؤمنين، فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦١.

مَن عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة؛ لأن الذين يبغون لا يشمل المسلمين»[1].

وهذه التلوينات البلاغية أضفت على الصور القصصية مزيداً من الحيوية والجمال، حيث الإقناع العقلي والإيحاء النفسي، بالإضافة إلى إبراز مواقف فئة من البشر المتغيرة حسب حالاتهم ومصالحهم.

ومن الصور القصصية، التي تسرد مشهداً عجيباً، وتحيط بالحالة من كل جوانبها ببلاغة معجزة قوله تعالى بعد تقديمه تلخيصاً لقصة أهل الكهف: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ (الكهف:١٧-١٨).

فالفتية في فجوة من الكهف، تحيط بهم كل أسباب الحياة، الشمس عند الشروق والغروب تميل عليهم، كأن لها إرادة في عملها، ويتقلبون يميناً وشمالاً، كي لا يضرهم البقاء على جنب واحد، وكلبهم نائم أمامهم كأنه يحرسهم، والإتيان بالمضارع في ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ للدلالة على التجدد، لو اطلع عليهم أحد لولى فراراً من شدة الرعب.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥٨.

والصورة القصصية مفعمة بظلال نفسية، تشخص حالة أهل الكهف بدقة، وتتضافر عناصر عدة للتأثير بها على المتلقي، كصيغ المضارع والمبالغة والاستعارة وغيرها من الأساليب البلاغية.

ولعل أبلغ الصور التشخيصية، تلك التي وردت في قصة نوح، حين قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

ويتمثل التشخيص في نداء الأرض والسماء بما يُنادى به الإنسان، ثم أمرهما الله تعالى بما يؤمر به أهل التمييز والعقل. وبناء فعل قيل للمفعول هنا اختصار لظهور فاعل القول، لإضفاء السرعة على الصورة؛ «لأن مثله لا يصدر إلا من الله. والقول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلق أمر التكوين بكيفيات الأفعال في ذاتيتهما وانفعالهما بذلك كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالاً وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية»[1].

والصورة جاءت على وجه الحقيقة وليس المجاز، للتدليل على عظمة المنادي، وسرعة استجابة المنادى. فالسماء والأرض امتثلتا لأمر الله كي ترسو السفينة بسلام، وكأن هذه الآية جاءت لتجسد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٨/١٢.

وبذلك تكون الآية أنموذجاً للتصوير البليغ، الذي تضمن في كلمات قليلة أمراً ونهياً وإخباراً ومناداة ونعتاً وتسمية وإهلاكاً وإبقاء وإسعاداً وإشقاء وقصصاً[1] والذي كشف عن اقتصاد وإيجاز على مستويات ثلاثة: صوتي ولغوي ونحوي، وفي المقابل نجد اتساعاً وشساعة في الدلالة والجمال، ما يحقق المتعة والفائدة.

وفي قصة زكريا الواردة في سورة مريم، يقدم الله عز وجل مشهداً مؤثراً، يصور فيه عبده حين يلجأ إليه داعياً، شاكياً ما ألم به من ضعف وقلة حيلة، ثم إجابته تعالى للدعوة، وإن انقطعت الأسباب، تصويراً لرحمة الله ولعظمته وقدرته، وأن لا ملجأ منه إلا إليه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا

(١) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص٧١.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم:٢-١٥).

وقد مهد الله عز وجل لهذه الصور القصصية بتأكيده على رحمة الله وسعة إحسانه بعباده، وبتقديمه لآداب الدعاء، حين ذكر نداء زكريا لربه نداء خفياً. ثم تلا التمهيد مباشرة دعاء زكريا، الذي جمع بين الصورة المادية المحسوسة وبين الصورة المعنوية والنفسية، فهو زاوج بين ضعف عظمه وانتشار بياض الشيب في رأسه انتشار النار في الهشيم وعقم امرأته، وبين خوفه من الموالي أن يضيعوا شريعة الله، يقول ابن كثير، في تفسيره: «وجه خوفه: أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده؛ ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه، فأُجيب في ذلك».

وحين جاءت البشرى لزكريا عاد يسأل ربه في صورة خاشعة، طلباً للطمأنينة، وإظهاراً للتعجب من قدرته، مثلما سأل إبراهيم ربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وجاء الجواب، الذي يفتح للمتلقي صوراً شاسعة من قدرة الله تعالى على الخلق والإبداع والاستجابة، والإشارة إلى أن خزائن الله تعالى لا تعد ولا تحصى، وما على العبد إلا الإذعان له عز وجل، المصاحب بالعمل الصالح كي يُمنح عطاءه، فزكريا دعا الله أن يرزقه ولداً

مرضياً، فاستجاب له ربه بمنحه ولداً يجمع عدداً من الصفات الحسنة، التي تجاوزت ما طلبه.

وقصة زكريا في هذه السورة وردت عبر صور بلاغية جميلة، عبرت عن حالته الواقعة بين الخوف والرجاء، اتخذها كثير من البلاغيين مناط تحليلهم، لما تثيره في ذهن المتلقي من حركات تخييلية، ولمسات بيانية تكشف عن عظمة الخالق الرحيم، ومدى حاجة الإنسان إليه في جميع حالاته. وختمها عز وجل بمخاطبة يحيى بشكل مفاجئ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، ثم بالعدول عن مخاطبته للحديث عن ذاته العلية، التي سوّت يحيى بصفات معينة، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾، وهذا التغيير في أسلوب الخطاب يحدث هزة نفسية وفكرية للمتلقي بحجم الدلالات، التي توحي بها الصورة.

وإذا كانت قصة زكريا وردت على شكل صور حوارية، فإن قصة مريم، التي حملت السورة اسمها، زاوجت بين السرد والحوار. وأول ما قدم به السرد القرآني مريم صورتها وهي في حالة استقرار وطمأنينة، حيث اتخذت لنفسها مكاناً منعزلاً، تخلو فيه مطمئنة دون أن يراها أحد، يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم:١٦-١٧).

ويكسر السرد هذا الاستقرار بانتقاله على نحو مفاجئ إلى حدث غير متوقع لمريم، فها هي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها بنفسها، حين تجد نفسها أمام رجل كامل. ومن هول المفاجأة تنتفض مريم، وتلجأ مباشرة إلى الله تعالى تستعيذ به وتستنجد، وفي الوقت نفسه تحاول إثارة مشاعر التقوى في نفس الرجل، الذي فاجأها فتقول: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ (مريم:١٨)، وهنا يتحول السرد إلى مشهد حواري غريب، فيبادر الرجل بمفاجأتها المفاجأة الأخرى فيقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ (مريم:١٩)، فتسأله بتعجب ودهشة عبر صورة صريحة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ (٢٠)، أي تسأل كيف يمكن أن تأتي بالولد وهي منعزلة عن الناس ولم يمسها أي واحد، وليست بذات زوج، ولا يتصور منها الفجور والبغي، فيجيبها الرسول المرسل من الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ (٢١)، فأمر الحمل والولادة لم تتصور مريم أن يحدثان إلا بالاتصال المباشر بين المرأة والرجل، لكن في حالة مريم، عليها السلام، كان ذلك على الله هين وسهل، لأن قدرة الله تقول للشيء كن، فكان منها غلاماً زكياً هو عيسى، عليه السلام، دون نطفة كما هو شأن كل البشر.

وينتهي الحوار بين الرسول المرسل من الله تعالى وبين مريم. ولا يذكر لنا السياق القرآني سوى أن حملها ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ (مريم:٢١)، أي أن هذا الغلام، الذي سيكون آية للناس ورحمة من الله قد انتهى أمر حمله، وتحقق

وقوعه، أما كيف حصل ذلك فلا يذكر القرآن الكريم عن ذلك شيئاً؛ لأن السرد القرآني يختصر الأزمنة، ويطوي الأحداث فلا يذكر منها إلا ما يفيد السياق والغرض من القص.

ثم يمضي السرد ليعرض مجموعة من الصور القصصية، يقول تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (مريم:٢٣)، فهذه الصورة تكشف عن الهزة، التي انتابت مريم العذراء وهي تحمل بسيدنا عيسى، عليهما السلام، وتتخيل هول المواجهة، التي ستواجه بها المجتمع وحيدة، لأنها كانت تعرف أنها سوف تبتلى وتمتحن بهذا المولود من قبل قومها.

وإلى جانب هذه الآلام النفسية، التي تنتابها من المواجهة، يجيئها المخاض، وتنتابها الآلام الجسدية، آلام الولادة، فتستند إلى جذع النخلة، تتكئ عليها، تعاني من الآلام والأحزان حتى تتمنى الموت، وتقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، وفي غمرة الآلام والوحدة والخوف تقع لها المفاجأة الكبرى، يقول تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (٢٤-٢٦).

هذه هي المفاجأة، التي هدأت من روع وحزن مريم، فقد سمعت طفلها يتكلم من تحت النخلة، التي ولدته إلى جوارها، وقال لها من تحت النخلة أن لا تحزني لهذا الأمر، قد جعل الله لك جدولاً يجري أمامك، وحركي جذع النخلة فيتساقط عليك الرطب الطري الشهي، أي الثمرات الناضجة، وكلي منها كي تتقوي، وبالإضافة إلى التمر طلب المولود من مريم أن تشرب الماء العذب، الذي جرى تحتها، وأن تطيب نفساً ولا تحزن، كما طلب منها إذا رأت أحداً من الناس وسألها عن شأن المولود فلتقل له «إني نذرت السكوت والصمت لله تعالى ولن أكلم أحداً من الناس». ولتدع لله تعالى الباقي.

وحين تسمع مريم هذا الكلام، تنزل عليها السكينة والطمأنينة، فتأكل وتشرب، وتقرُّ عينها، ويذهب روعها وحزنها، وتعلم أن ما حدث معجزة فضَّلها الله تعالى بها ولن يخذلها عزَّ وجلَّ. واتبعت مريم ما طلب منها، ولم تكد تلمس جذع النخلة حتى تساقط عليها تمراً شهياً.. فأكلت وشربت ولفت الطفل في ملابسها، وخرجت به من خلوتها، ولاحظ الناس أنها تحمل طفلاً، تضمه لصدرها وتمشي به، ولا شك أن قومها انتابتهم حيرة وتساؤلات كثيرة حول ما شاهدوا، حسموها باتهام صريح لها كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ (مريم:٢٨)، وتنتابهم الدهشة، فيسألون في تعجب واستنكار: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ (مريم: ٢٧- ٢٨)، إن الهزَّة أطلقت ألسنتهم بالسخرية والتهكم

على (أخت هارون)، وفي تذكيرها بهذه الأخوّة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها، لذا أشاروا إلى أبويها.

وتتصاعد وتيرة الحدث وتتأزم، ومريم تخلد للصمت في مواجهة الاتهامات، وتشير إلى طفلها، ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة أمامهم، لكن القوم يزداد تعجبهم واستنكارهم، وهم يرَوْن عذراء تواجههم بطفل كي يكلمهم، ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم:٢٩)[1].

وفي مشهد مثير تكلَّم ذلك الغلام مُبعداً عن أمه كل خطيئة، مظهراً طهرها وعفتها ومكانتها عند الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠- ٣٣).

وتنتهي قصة مريم في القرآن هنا، يختمها عز وجل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٣٤-٣٦)، ليؤكد عبودية عيسى ومريم له تعالى، وأن عبادته وحدها هي الصراط المستقيم، وهي نهاية مناسبة لآية أخرى ورد فيها إشارة إلى مريم، عليها السلام، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

(١) ابن كثير، ٢٢٨/٥.

يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٦-١١٨).

إن المتأمل للصور الواردة في قصة مريم، يجد أنها جمعت بين الصور الحسية والصور العقلية، توزعت على مشاهد مختلفة، بينت عمق المشاعر، مع الإقرار بحقيقة التوحيد.

وتقدم قصة طالوت وجنوده بمجموعة من المشاهد الحية، المستندة إلى أحداث واقعية، وشخصيات حقيقية، متوسلة في ذلك بلغة تصويرية، مفعمة بالحركية والحياة، تكشف طبيعة صنفين من البشر، صنف كثير التذمر والاعتراض على أوامر الشارع، يتصف بضعف الإيمان والنفاق العقائدي، يختبرهم الله تعالى مرة بعد أخرى، كي لا يبقى لهم حجة، وصنف يعبر عن القلة المؤمنة، المواجِهة للتقاعس بالصبر والطاعة والجهاد. يفتتح الله تعالى هذه القصة بمخاطبة المتلقي، ليقص عليه أنباء مجموعة من أشراف بني إسرائيل ووجهائهم، يطلبون من نبي لهم بعد موسى، عليه السلام، تعيين ملك يقاتلون تحت لوائه، ولما حقق لهم ذلك تقاعسوا وتولوا مدبرين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ

مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:٢٤٦).

مشهد يعتمد على السرد والحوار لتقدم مجموعة من الصور التعبيرية، التي تكشف حقيقة ادعاء القوم استعدادهم للقتال في سبيل الله، لكن حين يضعهم نبيهم أمام الأمر الواقع يظهر نفاقهم وتقاعسهم، وتأتي لفظة ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ وتذييل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتعميق صورة الإعراض والإدبار من فضاء المعركة، وما يتبعها من ظلم للنفس وللأمة، ولتثير في أعماق المتلقي حالات من النفور والاشمئزاز.

وتتوالى مشاهد الكبر والظلم والإعراض في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (٢٤٧-٢٤٨).

من خلال هذا الحوار أخبرهم نبيهم أنه تقرر تعيين طالوت ملكاً عليهم، لكنهم تابعوا اعتراضهم، لما جبلت عليه أنفسهم من التولي عن الحق، واعتبروا أنه لا يستحق الملك مادام لا يملك الانتماء الاجتماعي للطبقة الغنية، ويرون أنهم أحق بالملك منه، ولا يخفى ما في هذه الصور الحوارية من كبر واستعلاء على الناس واحتقار لمن دونهم. وفي هذا جدال عقيم، واشتغال عن المعركة الحقيقية، بصراعات مصلحية، تضر بالصالح العام. لكن الله رد على اعتراضهم المبني على موازينهم الأرضية البشرية، وأكد أن تعيين طالوت تم وفق ميزان رباني دقيق لا يحابي أحداً، ويعتمد على القوة والعلم.

ومن أبلغ الصور تأثيراً على النفس صورة القرية الفارغة وما تثيره في النفس الإنسانية من مشاعر التعجب، ثم الصورة العجائبية للمتسائل خلال نومه مائة عام، ومشاهدته لقضية البعث في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٥٩).

فالله تعالى يعرض صوراً حسية مليئة بالحركة والتدرج، تستثير المشاعر، مكرراً لفظة «انظر»، ولعل القصد منها النظر العقلي، أو البصيرة، وليس النظر

البصري، لإقناع المتلقي، حيث كان البعث دليلاً واضحاً على القيمة العقدية، التي بُنيت القصة في كليتها لإقرارها في النفوس.

ومن أروع الصور القصصية، التي تحرك النفس وتسمو بها نحو آفاق القيم، ومعارج العبادة الحقة، قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ (الفتح:٢٩)، صورة تقابل بين الشدة والرحمة، بين الكفر والإيمان، لتقدم صفات رسول الله ﷺ وصفات المصاحبين له، التي نجدها في كل الكتب السماوية، يشبههم بالزرع الناضج المستوية حباته بهاءً ونماءً.

إن القصة القرآنية استطاعت تصوير النفس الإنسانية في مختلف حالاتها ونزعاتها الثابتة والمتغيرة والطارئة، وتشخيص أبعادها المتنوعة والمتشعبة والمعقدة، كما استطاعت تشخيص مظاهر الطبيعة والكون فكانت بمثابة المعبر، الذي يوصل المتلقي إلى أبعاد جمالية ودلالية، تفضي به نحو الهداية وتصحيح العقيدة.

المبحث الثالث

جمالية الإيجاز والحذف

الإيجاز لغة الاختصار والتقليل، وفي الاصطلاح هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، مع وفائها بالغرض المقصود ورعاية الإبانة والإفصاح فيها، أي «دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل ضد ذلك»[١]. وقد عرفه السكاكي بأنه «أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط»[٢]. ويأتي الإيجاز على قسمين: إيجاز القصر، ويسمّى إيجاز البلاغة، وذلك بأن يتضمن الكلام المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، وإيجاز الحذف، وذلك بأن يحذف شيء من العبارة، لا يخل بالفهم، مع وجود قرينة.

أما الحذف في اللغة، حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعه من طرفه، والحذف الرمي عن جانب، وحذف الشيء إسقاطه[٣].

وقد اهتم العرب بدراسة ظاهرة الحذف في النص الأدبي، يقول عبد القاهر الجرجاني: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً

---

(١) عبد الرحمن بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة (تطوان: مطبعة الخليج ، ٢٠٠٩م) ص٢٩.

(٢) مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م) ص٢٧٧.

(٣) انظر: الصحاح في اللغة، ١/١٢٠.

إذا لم تبن»[1]، ويطلق أحياناً على الحذف الإضمار[2]، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر[3].

والإضمار هو الإخفاء والتغييب. ويرى ابن الشجري «الحذف اختصاراً من أفصح كلام العرب، لأن المحذوف كالمنطوق به من حيث كان الكلام مقتضياً له»[4].

وقد تعددت المصطلحات وتفرقت التعريفات للإشارة إلى مفاهيم الإيجاز والحذف عند البلاغيين والنحويين، فهناك الإيجاز والحذف والاختصار والتكثيف والإضمار والقصر والإشارة والتلميح وغيرها، لكننا لن ندخل إلى تعريف هذه التفريعات والتفاصيل، وإنما حسبنا دراسة الإيجاز والحذف باعتبار تلازمهما في القرآن الكريم، وباعتبار أنهما يؤديان معنى واحداً يشير إلى التكثيف وإسقاط الزوائد، ويعبر عن صورة من صور البلاغة في القرآن الكريم، وفي القصة القرآنية بصفة خاصة، تتميز بالتركيز، والوصول إلى جوهر المعنى عبر القول الموجز والإشارة الدالة .تُستثنى من ذلك بعض الآيات، التي اقتضى البيان الإلهي أن تأتي بشكل مفصّل، لكنه تفصيل لا يحمّل التركيبَ فوق ما يحتمل المعنى أو يقتضيه السياق.

---

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ١٢١/١.

(٢) انظر: بدر الدين الزركشي، البحر المحيط، في أصول الفقه، تحقيق: عبد القادر عبد الله العاني، ٦٤٣/١.

(٣) شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري، عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (بيروت: دار صادر).

(٤) الأمالي، ابن الشجري، تحقيق، محمود الطناحي، ط١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٣م) ١٢٣/٢.

لذا، فإن محاولة الكشف عن جمالية الإيجاز والحذف في نماذج من القص القرآني يكون عز الطلب ومنتهاه، خاصة ملامسة ما يحقق أكبر قدر ممكن من التأثير على المتلقي، فيجنح نحو المشاركة في تقدير ما حذف وما أوجز، والتوصل إلى عمق الدلالات، والاقتناع بها، وكأنه توصل إلى ذلك من تلقاء نفسه، وظهرت على يده لا على يد مخاطبه[1].

ومن أجمل ما وقفت عليه من إيجاز في القصة القرآنية، اختصاره تعالى لقصة أهل الكهف وتمهيده لها في ثلاث آيات بينات في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ (الكهف:٩-١٢).

فالمتأمل لبلاغة القص في هذه الآيات يجد إيجازاً لقصة متكاملة، فيها ذكر لجوء الفتية إلى الكهف، وهدفهم، وتوجههم إلى الله تعالى ودعاؤهم له، وخروجهم بعد ذلك، والإشارة إلى طول مكثهم فيه، ثم بعثهم بعد ذلك، واختلاف الناس في شأنهم، قبل أن يورد القصة كاملة ابتداء من قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ (١٣) والتي حفلت بمعان ودلالات شاسعة على قلة ألفاظها وإيجاز سرد أحداثها وحذف تفاصيل منها في مواطن

---

(١) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ط١ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م) ص١٥٠.

كثيرة، إما من أجل ترك فسحة من التأمل والتخييل للمتلقي لملء الفجوات بما يناسب فهمه وتدبره، أو لأن السياق غير معني بذكر ما من شأنه عدم إثراء المقاصد الجمالية والدلالية، التي تسعى إليها القصة.

ومن أبلغ القصص القرآني، التي نجد فيها ظاهرة الحذف والإيجاز بشكل بيّن، قصة سليمان، عليه السلام، في سورة النمل. افتتحها الله عز وجل بالإشارة إلى الجن والإنس والطير ودورهم فيما سيأتي من أحداث، وبالإشارة إلى دور العلم وأهميته في التمكين والخلافة في الأرض، وهذا ملمح فني ومعرفي دقيق في القصص القرآني، تم توظيفه قبل البدء بسرد القصة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (١٦). ثم تبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧)، ليدخل مباشرة لسردها بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وهي حرف غاية لمحذوف تقديره فساروا حتى إذا أتوا، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨)، وفي الآية إيجاز بالحذف بليغ؛ لأن أصله: ادخلوا في مساكنكم، فحذف منه (في) تنبيهًا على السرعة في الدخول.

يقول السيوطي: «فقد جمع في هذه أحد عشر جنساً من الكلام؛ النداء والكناية والتنبيه والتسمية والأمر والقصص والتحذير والتخصيص والتعميم

والإشارة والعذر. فالنداء: يا، والكناية: أي، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم: جنوده، والإشارة: وهم، والعذر: لا يشعرون»[1].

وفعل التحطيم[2] فيه من الإعجاز والبلاغة والدقة ما يحير الألباب.

ويتابع السرد قص ردة فعل سليمان، عليه السلام، حين سمع كلامها: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١٩)، وتبسُّمُ سليمان، عليه السلام، تبسّمَ تعجب من أنها عرفت اسمه، وأنها قالت: وهم لا يشعرون، فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة، وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنبيها له وداع لشكر ربه على النعم، التي أنعمها عليه، ودعوته[3]، بتعبير «يشي بنعمة الله، التي مست قلب سليمان، عليه السلام، في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشة وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال»[4].

---

(١) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص٤١٧.

(٢) حطم يعني كسر، وقد ثبت علمياً أن جسم النمل يتركب معظمه من كمية كبيرة من السليكون، الذي يدخل في صناعة الزجاج، والتحطيم هو أنسب الأوصاف للفعل الدالّ على التكسير والتهشيم، نقلاً عن موقع:
www.islamiyyat.com/lamsat-aya2.html

(٣) انظر التحرير والتنوير، ج٢٠.

(٤) في ظلال القرآن، ١٩/٢٦٣٧.

وينتقل السرد بشكل بديع مفاجئ إلى حدث آخر من أحداث القصة في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٠-٢٤).

ففي الآيات مجموعة من الصور القصصية تقص ما حدث لسليمان، عليه السلام، مع الهدهد وسبب غيابه عن موقعه، ولفظة ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ توحي بدلالات كثيرة، منها حرص سليمان، عليه السلام، على متابعة رعيته وجنوده، وخاصة المقيمين في المواقع الحساسة، وحين لم ير الهدهد توعده بالعقوبة الزاجرة إذا لم يأت بدليل مقنع عن سبب غيابه؛ لأن المقام مقام أمن دولة وسلامة أمة، والتسامح في التهاون والخطأ قد يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، لذا جاء الوعيد بالتأكيد بلام القسم ونون التوكيد. ولم تطل مدة محاكمة الهدهد، ووقوفه أمام سليمان، عليه السلام، وتقديم مسوغ غيابه.

وتم التعبير عن ذلك بأسلوب موجز ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وهذا غاية في الإعجاز البياني، لأن المكث يستخدم للمدد القصيرة، كما أن الإحاطة بالشيء تعني الإلمام بكل جوانبه، فكانت ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ تنبيهاً

لسليمان، عليه السلام، وللمتلقي أن الإنسان مهما أوتي من العلم والمعرفة فإنه يحتاج إلى المزيد، ليكتشف الجديد. وما جاء به الهدهد، ليس لغو الكلام، وإنما نبأ يقين مفاده أن هناك قوماً في مملكة سبأ، تحكمهم امرأة، ويعبدون غير الله، وفي هذا من المفاجأة والخطورة ما يجعل سليمان، عليه السلام، يبادر لمعرفة مدى صدقه.

وفي إيجاز يكشف الهدهد بكناية بديعة غنى مُلك المرأة وتوفر أسباب القوة والمادة لديها، فهي ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ويكرر فعل ﴿وَجَدتُّ﴾ للدلالة على تعجبه من ذلك، فرغم ما امتلكته من ملك وعظمة مادية، فإنها تسجد لغير الله، وهذا ما أربك الهدهد وجعله يتعجب، ويبادر إلى إخبار نبي الله سليمان، عليه السلام.

وما يلفت الانتباه في هذا المجال، حذف اسم المرأة، وذكرها بجنسها وصفتها، وكذلك الأمر بالنسبة للنساء الوارد اسمهن في القرآن الكريم، باستثناء مريم، وهذا يعني أن القرآن الكريم يأتي بنماذج يمكن أن توجد في أي زمان ومكان، ويستوعب تواجدها كل الأبعاد الشمولية للحياة، باعتبارها ثقافة وقيماً، فلا يتم التركيز على الأسماء والصفات الجسدية في حد ذاتها، بقدر ما يتم التركيز على القيم والرؤى والمواقف. ودون أن يعرف المتلقي تفاصيل ما حدث بعد ذلك، باستثناء الوعيد المبطن في خطاب سليمان، عليه السلام، باستخدام المفارقة بين نتيجتي الصدق والكذب، ينتقل السرد بسرعة إلى أحداث أخرى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

نلاحظ في الآية، كما هو الشأن في القرآن كله، الدقة في استخدام الألفاظ للدلالة على الموقف بمنتهى الضبط، فسليمان، عليه السلام، قال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ للتعبير عن سلوك الطير في إيصال الكتاب.

وينتهي هذا المشهد دون أن يعرف المتلقي أي شيء عن فحوى الكتاب، ليعلن السرد افتتاح مشهد آخر، في فضاء آخر: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ (٢٩-٣١)، كلمات قليلة تبين دلالات كثيرة، فالكتاب مصدّر باسم الله، رغم أنه موجه من سليمان، عليه السلام، يطلب بلهجة موجزة وحاسمة عدم الاستعلاء، والطاعة.

وهنا تظهر سياسة الملكة مع قومها، فهي تستفتيهم، وتطلب الشورى منهم: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٢-٣٥)، ليتفقوا آخر الأمر على بعث هدية لسليمان، عليه السلام، لاختبار ردة فعله، وانتظار ما ستأتي به من نتيجة.

وهي نتيجة توصلت إليها بلقيس، بعد أن وظفت أسلوب المقابلة بعبارات وجيزة مختصرة، بينت فيها حال العزة في راهن وقت الرسالة، وحال الذلة في المستقبل إن رفضوا طلب سليمان، عليه السلام.

ويرفع الستار عن مشهد آخر حين يتلقى سليمان، عليه السلام، الهدية، فينكر عليهم تقديمهم لأشياء مادية، وما عنده أعظم، ويعلن في إصرار وعيده لهم، وتحقيره لهديتهم. وكأنه يعيب عليهم شراءه كي يتركهم على كفرهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (٣٦-٣٧). وتكرار الفعل المتصل بنون التوكيد الثقيلة، يدخل المتلقي في عالم القوة والحسم.

وينتقل المتلقي إلى عالم عجائبي، فبعد حديث سليمان، عليه السلام، مع الهدهد، نفاجأ بحوار من نوع آخر، يستعرض فيه سليمان، عليه السلام، سرعة الاستجابة عند جنوده من الجن والعفاريت: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣٨-٤٠)، فقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه بالعرش قبل انقضاء جلسته هذه. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى، فاستطول سليمان، عليه السلام، هذه الفترة، فإذا ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه[1].

---

(١) انظر: في الظلال، ص٢٦٤١.

ولا يذكر في السياق اسمه، ولا اسم الكتاب، الذي عنده علم منه، «إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سراً من الله. وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المتصلين، ولم يُكشف سره ولا تعليله، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية. وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة، التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات»[1].

وجاء السرد بعد ذلك بصيغة الماضي، على اعتبار أن العرش وصل وانتهى الأمر. وهذه السرعة المفرطة، التي أتى بها، لامست وجدان سليمان، عليه السلام: «واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه. والله غني عن شكر الشاكرين، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومن كفر فإن الله (غني) عن الشكر، (كريم) يعطي عن كرم، لا عن ارتقاب للشكر على العطاء»[2].

ويسترسل السرد في حكي الأحداث، التي وقعت بين سليمان وبلقيس: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ (٤١-٤٣).

---

(١) المرجع السابق، نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٤٢.

ويعرض السرد عن ذكر تفاصيل مجيء ملكة سبأ، وكأن الأمر مفروغ منه، ويدخل مباشرة في قص مفاجأة سليمان، عليه السلام، لضيفته، واختباره لفطنتها وذكائها، حين يأمر بإخفاء معالم عرشها، ثم سؤالها بعد ذلك عنه بصيغة المبني للمجهول ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾؟ ولم يقل: أهذا عرشك، لئلا يكون تلقيناً لها، فيفوت المقصود من الأمر بالتنكير، وهو الاختبار لعقلها، وتجيب الملكة بجواب يعدل عن مطابقة الجواب للسؤال، ويحتمل النفي والإيجاب ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وهو جواب ينبئ عن رجاحة عقلها وفطنتها، قال ابن كثير: «وهذا غاية في الذكاء والحزم»[1].

وتكفل الله عز وجل بالرد عن تساؤل محذوف، مفاده أنها ما دامت على هذه الدرجة من البصيرة والفطنة، فلِمَ لم تكن مسلمة؟: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

وأراد سليمان، عليه السلام، بعد ذلك أن يطلع ضيفته على نعم الله عليه، فأعد لها قصراً من البلّور المملس، أقيمت أرضيته فوق الماء: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٤٤). ووقفت الملكة منبهرة بما رأت، وأدركت أن قوى أكبر من طاقة البشر مسخرة لسليمان، عليه السلام، فرجعت إلى الله، وأعلنت إسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/٦٧٣.

ومن أبلغ القصص القرآني، التي تشحذ ذهن المتلقي، وتحرضه على البحث عن الدلالات الثاوية في بلاغة محذوفها وعمق إيجازها، قصة قابيل وهابيل. وهي على قصرها تشد المتلقي وتدفعه نحو ملء الفجوات، والتأمل فيها. يفتتح تعالى القصة بدعوة محمد ﷺ إلى قص خبر ابني آدم، حقاً وصدقاً، وهي دعوة يفترض القارئ من سياقها أن هناك أخباراً غير حقيقية شائعة عنهما: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ (المائدة:٢٧)، دعوة قرآنية تلفت الانتباه إلى تحري الدقة والصدق والحق في نقل الخبر، ثم الدخول مباشرة إلى قلب الأحداث:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧)، فالآية تتحدث عن طقوس عبادية يقوم بها أخوان، فهما معاً قربا قرباناً لله عز وجل، لكن تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فنوع العبادة القربان، وهو اسم جنس اشتق من قرب يقرب، أفاد التوكيد، وأفصح عن شحنة أسلوبية بسبب جناس الاشتقاق المغاير، الذي أدى المعنى بأوجز عبارة، ومنح آفاقاً رحبة بما توحيه في النفس من مشاعر الطمأنينة والسلام والقرب من الله، رغم أن فعل القبول ورد بصيغة المجهول، إلا أن المتلقي يصطدم بمفاجأة الإعلان عن القتل. والفعل المبني للمجهول «يشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية، وإلى كيفية غيبية.

وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

والثاني: الإيحاء بأن الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه، وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية، تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته. فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه. فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال، مجال العبادة والتقرب، ومجال القدرة الغيبية الخفية، التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها»[1].

وفي الحوار يتصاعد الحدث إلى نقطة الذروة، ويصل الصراع بسرعة إلى مجال القتل، ويقع حذف وإضمار عدد من المعطيات المتعلقة بوصول الإنسان إلى هذه الدرجة من الشر والغل حتى يقدم على قتل أخيه.

ورغم التأكيد الوارد في لفظة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، إلا أن هابيل يحاول أن يواجهه بنفسه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهي عبارة توحي بظلال كثيفة من الحزن والأسى على عدم تقوى أخيه، وهنا نتبين نفسيته المسالمة المغايرة لنوازع الشر والحقد في قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة:٢٨-٢٩).

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/٨٧٥.

فهذا الحوار الموجز يلخّص هويّة الأخوين وطبيعة كلّ منهما الفكرية والنفسية.

ولا تنتهي القصة هنا، وإنما يسرد الله عز وجل تنفيذ عملية القتل والتي انبعثت نيتها من داخل النفس، دون أي تأثيرات خارجية: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (٣٠-٣١)، ويقتحم بنا القرآن الكريم فطرة الإنسان، التي يؤوب إليها، لتتنازعه نفسه ويندم على ما ارتكبه في حقها، ويقدم صورة للضعف والعجز، بكلمات قليلة، ودلالات واسعة. فمهما كان الإنسان جباراً قاتلاً، فهو عاجز أمام جهله ونفسه.

ويلتقط السياق الآثار العميقة، التي تتركها في النفس رواية القصة بهذا التسلسل الموجز، «ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع، الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص، التي تنتظره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (٣٢) من أجل ذلك، من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين،

الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعا"[1].

فالإيجاز والتكثيف في القصة جاء أبلغ من التفصيل والإطناب؛ لأن الغاية الأساس تنبيه البشرية إلى التشريع والأحكام الإلهية.

ومن أجمل القصص، التي تبرز فيها جمالية الحذف والإيجاز قصة لوط، ووردت في سلسلة القصص، التي تعرض مصائر الأمم الممزقة البائدة، مثل قوم نوح وهود وصالح، وارتبطت بقصة إبراهيم، واستدعت إحداهما الأخرى، في مفارقة بين الولادة والإبادة.

فالملائكة، الذين جاؤوا يبشرون امرأة إبراهيم بالولد، أتوا بنذير العذاب المرسل إلى قوم لوط: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ

(١) انظر: في الظلال، ص٨٧٧-٨٧٨.

بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود:٧٧-٨٣).

وقد اختصر السياق هذا المشهد بين لوط والملائكة فحذف ما كان من قومه حين علموا بأن ضيوفاً نزلوا على لوط فهرعوا إليه، ولكن الأسلوب استعاض عن المحذوف بإظهار المساءة، التي أصابت لوطاً حين جاءته الملائكة، وتصوير ضيق ذرعه عن بسط الحماية عليهم، ثم إن الواو في ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ (العنكبوت:٣٣) تدل على أن ثمة حذفاً في السياق؛ لأن الواو لم يتقدمها معطوف عليها. كما يظهر التكثيف الشديد في توظيف القرآن للمقابلة بين عاليها وسافلها للدلالة على التدمير والهلاك، الذي أصاب قوم لوط.

وقد يوظف القرآن حذف مدة زمنية معينة، أو يقفز عليها، كأن يقفز من زمن القصة إلى زمن الآخرة، خاصة في السور، التي تناولت الإشارات أو الشذرات القصصية فقط، كما في سورة النازعات والعنكبوت، اللتين لم تفصلا في قصة موسى، عليه السلام.

ونماذج الحذف والإيجاز كثيرة في القصص القرآني، من الصعب حصرها، تنبه فكر المتلقي، وتوقظ وعيه، ليستقبل مختلف المقاصد، التي يستشفها من السياق، ومما سكت عنه السرد أو أوجز فيه أو قفز عليه، خاصة، إذا امتلك أدوات لغوية وبلاغية، وحساً جمالياً، تمكنه من التأمل والتدبر.

الخاتمة

تعرضت هذه الدراسة لبلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي، من خلال نصوص القصص القرآني، الذي يمثل ثلث القرآن، بأدوات لغوية وبلاغية ونصية، تحاول الإشارة إلى مكامن الجمال في بلاغته، وورونق أسلوبه، ووحدة بيانه، وتكامل خطابه.

ومن النتائج المستخلصة من الدراسة:

- جمالية التلقي تتشكل من خلال امتزاج البناء الفني، ومقاصد الرؤية الموضوعية الدعوية، وتعتمد على تقنيات بالغة الإعجاز والروعة. واستحضار المدخل البلاغي في الفهم والاستنباط والتأمل، يكشف عن ثورة متجددة من المعاني والدلالات والبيان المعجز.

- شساعة التنوع في أسلوب الخطاب وبلاغة القص، فالقصص القرآني لا تجري على نمط واحد، وإنما حسب السياق، وما يلائم مقتضى الدلالات وطبيعة المخاطب.

- تأكيد القصص القرآني على اعتبار الوظيفة الرسالية للرسل والأنبياء واحدة، وقضيتهم قضية واحدة، هي توحيد العبودية لله، وأنها نماذج منتقاة من رب العزة، للتفاعل معها.

- رغم انتهاء السرد في القصة القرآنية، فإن ظلالها لا تنتهي، بل تستكمل رحلة بيانها في بناء آفاق وفضاءات، مرتبطة مع باقي القصص القرآني، لتحقيق الوحدة الشمولية، تحث المتلقي على المزيد من التأمل والتدبر، وإنزال دلالاتها ومعانيها على أرض الواقع، من أجل ترشيد المسيرة وتصحيح السلوك، وإعادة صياغة نفسه وفق هديها.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل في الفهم والعمل والسلوك.

الفهرس

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠ -بجوار سوق الجبر
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٢ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبة علوم القرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
اليمن	مجموعة الجيل الجديد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١- ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصر	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائر	دار الوعي للنشر والتوزيع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف:	٤٤٤٤٧٣٠٠
فاكس:	٤٤٤٤٧٠٢٢
برقياً:	الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة
الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

الوقفية العالمية المحكَّمة

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي

الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح لعامها الثالث عشر موضوع

المواطنة وفقه الانتماء

آخر موعد لاستلام البحوث كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧م

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري



برعاية الإدارة العامة للأوقاف

- **المحاور:**

- **مدخل:** تحديد المفاهيم: الوطن؛ المواطنة، الوطنية؛ الانتماء؛ الولاء؛ البراء؛ القومية؛ القُطرية؛ الأمة؛ الدولة؛ المجتمع؛ الشعب؛ العقد الاجتماعي؛ الحق المدني • السياق التاريخي للمفهوم.
- **قيم الهوية:** تاسيس وترسيخ قيم الهوية الوطنية: القرآن الكريم، السنة النبوية؛ السيرة؛ حياة الصحابة؛ التراث الإسلامي • بين مفهوم المواطنة ومفهوم الأمة والإنسانية • التعدد والتنوع سنة كونية وحقيقة شرعية وضرورة عمرانية وواقع تاريخي.
- **المواطنة وتعزيز قيم الانتماء:** دور الدين في بناء المشترك وتعضيد مواثيق المواطنة • مقومات التعايش السلمي بين المختلفين في العقيدة والجنس.
- **المواطنة ودوائر الانتماء:** بين الانتماء للوطن والولاء للعقيدة • إشكالية الانتماء بين الأمة والدولة • المواطنة في غير بلاد المسلمين • المواطنة والتحديات الراهنة: العولمة • التحالفات الدولية والقرارات الأممية،....
- **أسس المواطنة:** العدل، الأمن، المساواة، تكافؤ الفرص، المشاركة الكاملة، استحقاق المنافع الطبيعية • بين المواطنة والاندماج • الحقوق الإنسانية: الدينية، المدنية، السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية....
- **رؤية مستقبلية:** الفكر المقاصدي وأحكام الشريعة: مقاربة لمواطنة فاعلة • أثر الانتماء الوطني في تحقيق الأمن والتنمية وبناء السلم المجتمعي • وسائل استدعاء البعد الغائب في دعم وترسيخ قيم الهوية والانتماء • نحو بناء ميثاق وطني جديد: مقاربة تراثية (حلف الفضول، وثيقة المدينة...).

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصاً للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثيْن أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته الذاتية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net